
مروى جوهر
سرداب
قصر البارون
رواية
دار دَوّن
ساحر الكتب

المشاعرُ الإنسانية المُتداخلة والمُتضاربة والمضطربة لا تُنسى،
ونحن نمضي في الحياة على أمل النسيان، لكنها قد حُفرت بداخلنا
وانتهى الأمر، حتى نجد أنفسنا واقفين أمامها

وجهًا لوجهٍ.. قلبًا لقلبٍ.. وسيفًا لسيف

ونرى أسقامًا كثيرة قد ملأت نفوسنا.

حينها ثِقْ بأنَّ مواجهة الآلام ستُصلِح الأمر يومًا ما.

مروى جوهر

رامي إسحاق

"أنا راعي بقر وحيد سعيد"

هكذا تغنَّيث ومرحث طوالَ أربعين سنة كاملة، لم أخضع فيها لحسابات البشر، كانت جملة "راعي البقر السعيد بوحدته" في كتاب قديم لكاتبي المُفضل حينئذ تغمرني بالثقة، لم يعلم الكاتب أنه لمَس قلبي عشرات المرات وأيقظ بداخلي شعورًا بعدم الراحة في وجود الناس لأوقاتٍ طويلة، فلا أرتاح إلّا في صحبتي أنا، ولا أُصدق إلا نفسي، فقط أنا ونفسي التي أتعبتني كثيرًا، وصبرت عليها أكثر؛ لأنني قهرًا وعمدًا حرمتُها من بعض مُتع الحياة المُباحة، إذ كان الزواج والإنجاب يُعدان من متع الحياة، كان "الاستغناء" شعاري، ولا يزال، فأنا لا أُحبِّذ فِكرة وضع إصبعي تحت ضرس الحياة؛ لذلك أشفق على نفسي عندما تلومني أحيانًا وأتقبل لومها بهدوء.

اكتسبت لقب "مُتغطرسًا" أثناء دراستي بالجامعة الأمريكية بكلية الهندسة، ولم أكن محبوبًا إلا من جنس حواء، ساعدني على ذلك وسامتي وأموالي، وكنت أعلم جيدًا تأثير الغموض على النفس البشرية، فعَمِلت على تكبير هالة حولي تُعمي البصر عن كثير من الأمور الواضحة، وقد نجحت إلى حدٍّ كبير، لم أرغب في ربط مستقبلي وحياتي بالكامل بشخص واحد فقط، فبقيت أتنقل كعصفور صغير من شجرة إلى شجرة، حتى تقترب إحداهن أكثر من اللازم وتخدش جِدار هالتي فيأتي القرار بالبُعد فورًا؛ لأن قلبي لم يكن يتسع إلا لواحدة فقط، فكنت أؤنّب نفسي على تلك الأفعال

دون أن أتخذ موقفًا محددًا.

طوال سنوات عُمري كنت أختار العُزْلة والاختلاط بإرادتي، فأنا كائن منعزل في قوقعة بنيتُها بعنايةٍ، أخرُج منها شخصًا اجتماعيًا وكأنني لم أنعزل أبدًا. يقول الإنجليز عن هذه الحالة "Ambivert"، أحيانًا أُشاهد كمًّا مهولًا من الأفلام، وألتهِم الكثير من كُتب علم النفس، إلى جانب تخصُّصي في "هندسة البرمجيات"، حتى إنني استطعت أن أدرس وأطوِّر الكثير من البرامج في "بوسطن"، ثم ساعدني على التركيز في ذلك عملي في "واشنطن" في شركة "مايكروسوفت"، ولسنواتٍ مارستُ هوايتي بتنظيم حفلات صاخبةٍ في الساحل الشمالي أثناء إجازاتي المتقطعة، كانت الشباب تتحاكَى عنها لأيامٍ بعدها، وحيث إنني لم أخضع لقوانين لُعبة الحياة قط، بقيت أنا المُتحكم فيما يظن الناس عنِّي.

لكنني الآن مَلَلت التحكم والروتين في حياتي، ربما مَلَلت العيش وحيدًا في مدينة واسعة وقاسية، ومَلَلت أيضًا عملي في شركة يتمنى الملايين العمل بها، مللت أن أكون عبدًا لوظيفةٍ، فقرَّرت الرجوع لمصر؛ لأكون صريحًا أكثر قبلَ أن يتم تسريحي من العمل كما فعلوا مع الكثير بعد الأزمة الاقتصادية اللاحقة لفيروس كورونا، وأعلم جيدًا أن للحرية ثمنًا باهظًا، ومجازفة تشعل الأدرينالين.

وها أنا الآن مِن جديد في الساحل الشمالي على شاطئ "بيانكي" أحضُر "White Beach Party" لـ "روتاري"، وهي إحدى حفلات طبقة الـ Class A ، والأعلى تواصلًا مع كل جديد وباهظِ الثمن في العالم، بالرغم من انتمائي لهذه الطبقة فإنَّني لم أحسب نفسي منها

أبدًا.

أمواج البحر الهائجة تُنذر كلَّ من يحاول الاقتراب منها، الرايات السوداء ترفرفُ لكنها لا تمنع المغامرين من الغرق كل عام، ورائحة اليودِ تملأ المكان كما تملأ الرمال الكراسي والمناضد البيضاء الخالية، والتي هجَرها روَّاد المكان ليرقصوا بملابِسهم البيضاء تحت قُبة كبيرة من خشب الخيزران والخوص والورود البيضاء، ومجوهراتهم تلمع تحت أشعة الشمس المتسللة عبْرَ الخوص، وباتت المناضد خالية إلّا من مُتعلقاتهم المُبعثرة بجانب الأكواب نصف المملوءة بأنواع المشروبات المختلفة، لا أشعر بأنني افتقدت شيئًا في هذا المجتمع فالناس على حالهم، أكاد أجزم أنهم يتحدَّثون نفس المضمون بتغيير المصطلحات بشكلٍ أكثر مواكبة للعصر، هذا البخيل لم يتغير، وجلسات النميمة لا تنتهي.

أما أنا فأجلس هادئًا أدخن سيجاري كمتفرج لا أكثر، لم أعد أهتم بتنظيم هذه التفاهات، فقط أفكر كيف أستفيد من هذه "الطبقة الراقية" التي لا تستطيع أن تكفَّ عن التفاخر يومًا واحدًا، أغمض عيني وأراهم يفرّغون ما بداخل جيوبهم وبطائقهم الائتمانية من أموال لصالح شركتي، سأصنع لكم شيئًا لا تستطيعون العَيش بدونه.

ثم يُلهيني جمع الحفلة فأجدهم بين أجيال تُقاوم الزمن بالرقص وقد تخطوا الستين والسبعين بأريحية، وأجيال ترقُص على موسيقى "ويجز"، وأنا بينهم أتأقلم هنا وهُناك، لست بكبير ولا صغير، ألعب دور حلقة الوصل بين الأجيال وأفهمهم جميعًا، حقًّا أنا من أكثر الأجيال حظًّا، فقد كتبت خطابات وأرسلتها بالبريد، وكتبت رسائل

عبر تطبيقات تكنولوجية حديثة، ويتفاجأ من يعرِف سِنِّي فيؤكد أنني أبدو في الثلاثين من عمري، ربما لأن بشرتي السمراء تخفي كثيرًا من التجاعيد، أتذكر تعليق صديقاتي أن لون عيني العسلي وشعري الأسود الفاحم يخطفان الأعين، وربما لمواكبتي أحدث صيحات الموضة العالمية، لكنني أرى أن اهتمامي بممارسة الرياضة يلعبُ الدورَ الأكبر في إخفاء عمري، وبالرغم من أنني أصبحت في منتصف العمر، فإنَّ الطفل بداخلي لم يكتفِ من اللهو بعدُ، ولأرضي الرجل والطفل معًا أريدُ أن أخوض مغامرة محسوبة في تأسيس شركتي حتى لا أخسرَ كل ما جنَيتُه.

توقفتِ الموسيقى وتوقَّف الحضور عن الرقص العشوائي، وبدأ العاملون في تقديم الغداء على موسيقى "بودا بار" وعاد الراقصون إلى أماكنهم لالتهام وجبتهم المدفوع ثمنها مقدمًا عند الدخول، أزاح النادل أغراضي جانبًا بلُطف ووضع صُنوف طعام مختلفة مُزينة لا تبدو شهية، لمَستُ الطبق فوجدته باردًا كمن حولي.

علا صوت طنط "مشيرة" وهي تضمني بغتة وبشدَّة..

- رامو.. وحشتني يا حبيبي.

لما رأيتُها؛ خفق قلبي وارتقبتُ رؤيةَ أمي.. "كلير إدوارد"، التي رحلت منذ خمس سنوات، اجتهدت كثيرًا لأخفي دموعي أمام الجميع، فهي والدة صديقي الطفولة "نزار وماريز خياط"، وصديقة أمي المُقربة منذ طفولتهما وحتى آخر لحظات حياتها التي انتهت فجأة، والتي لم أشهدها معها!

وجرفني الحنين إلى بيت العائلة في مصر الجديدة بجوار "قصر البارون"، وغلبني الشوق إلى تفاصيل وديعة جعلت قلبي يرفرف من الفرحة ويبكي من الألم، لكني نظرت بجانبي إلى أختي الوحيدة "رنا" والتي تبدو سعيدة مع زوجها رجل الأعمال الشهير وأولادها، فاطمأننت عليها، لم نلتقِ لسنواتٍ إلا عبْرَ محادثات الفيديو، لكني أعود بالذكرى إلى دكتور "إسحاق" فانقبض صدري وضاقَ.

انضمت "كارول خليفة" زوجة نزار الأرستقراطية والتي تبدو كنجمات السينما؛ جمالها المُفرط والمُصطنع بدقةٍ يؤكِّد عمل الكثير من عمليات التجميل في الوجه والجسم، لم أتفوَّه بكلمةٍ واحدة ووالدة نزار تسأل:

- طمِّني على باباك.

أردفت رنا سريعًا:

- نفسيًّا مش كويس خالص، كمان فحوصات القلب الأخيرة تِقلق.

ظلَّت تُثرثر إلى أن أردفت كارول بخُبثٍ:

- الحقيقة رنا بتراعي باباك كأنها عايشة معاه بالظبط، ومتابعة حالته مع دكتور خالد يوميًّا، وصباح المُمرضة دي هايلة يا رامي، بس كويس إنَّك رِجعت علشان تِساعد رنا شويّة.

لم أُعلق وابتسمتُ بسخافةٍ؛ فأنا أكره التدخُّل في شئوني الشخصية، تركتنا طنط مشيرة وذهبت إلى أحد أصدقائها، حينها صاحت رنا بافتعالٍ لتُشتِّت ذهني عن الرد :

- خالد.. لسه في سيرتك.. إيه الصدفة دي؟

رأيته شابًا في منتصف الثلاثينيات، طويلًا، ممتلئ القامة، يرتدي نظارة طبية، لحيته وشاربه يملآن نصف وجهه، ونظراته الحادة مع لمعة عينيه تمنحانه جاذبية غير مفتعلة، ملابسه وذوقه يُشير إلى يُسر مادياته، حدثتني عنه رنا بضعَ مرات لتبلغني بطريقة غير مباشرة أن صحة دكتور إسحاق تسوء، عرفتنا رنا ببعضنا:

- دكتور خالد الشافعي.. كان من تلامذة بابا، وبابا اللي طلبه بالاسم، متابع حالته من خمس سنين.. مش عارفة من غِيره كُنا هنعمل إيه؟..... أخويا رامي إسحاق .. العبقري اللي حكيتلك عليه، لسَّه راجع من أمريكا، والحمد لله هيستقر في مصر أخيرًا.

صافحني في احترام وهو ينظر في عيني بودٍّ قائلًا:

- رامي.. سِمِعت عنَّك كتير.

ابتسمتُ دون تعليقٍ، فجلس على المِنضدة المجاورة والتفتَ يسألني:

- لكن مبقاش حد يرجع مصر علشان يستقر فيها!

التفَتُّ إليه قائلًا:

- ساعات بيبقى الاختيار إجباري.

لمحتُ لمعةً في عينَيه خبيثة فأشعل سيجارته وهو يبتسمُ، كانت رنا تتحدَّث عنه وكأنه السبب الذي يجعل الدكتور إسحاق على قيدِ الحياةِ، وفجأةً اشتعلت موسيقى الهاوس مِن حولنا وباغتني نزار

بحُضنٍ مثل أمِّه وهو يردِّد:

- والله زمان يا رامو.

لم يتغيَّر نزار خياط، هذا الشاب الذي درس الإخراج في معهد السينما لكنه أحبَّ الإنتاجَ، والآن يمتلك نزار إحدى أكبر شركات الإنتاج الفني في مصر ولبنان، رجلُ أعمال وفنانٌ ذواقة من الطِّراز الرفيع، لا زال نزار يهتمُّ بقوامه رغمَ أعباء العمل والزواج والأُبوة لطفلتين، منذ الطفولة يخافُ أن يمتلئ جسده لِقِصَر قامته؛ لذلك لا يتهاون في ممارسة الرياضة أو نظام غذائه الصارم، كان نزار من أشهر مُجربي كل ما هو جديد في "ترند" المخدّرات، وكان اكتشاف كل ما هو غامض شغَفه الأول في فترة المراهقةِ، لكنه لم يكُنْ مدمنًا، وإن كان في وقتٍ من الأوقات على شَفَا حُفرة الإدمان لولا يقظة أمِّه لحاله، لا يزال نزار وسيمًا، ولكني ما زلت أرى عينَيه الزرقاوين مخيفتين مع لون جِلده البرونزي المُكتسب، ظل يتحدَّث عن سهرات مُقبلة وليالٍ سيجهزها خصيصًا لمقابلة أصدقائنا القُدامى، وأنا أتمنَّى أن يتحدَّث عن "ماريز".

وبحضور "حازم جمال" يكتمل المثلث الذي أسَّسناه بالجيرة والدراسة والنادي وتقارب عائلاتنا، أصبح حازم أشهر مدير تصوير في مصر، فقد درس التصوير في معهد السينما لكنه موهوب بالفِطرة، وشكَّل مع نزار ثنائيًّا ناجحًا وجعلا من أعمالهما الفنية أيقونات، ولسوء حظه كان من أشهر أعمالهما أفلام رعب، رغم عدم حبِّ حازم لأفلام الرعب أو حتى الحديث عنها! أتذكَّر أنه كان يُصدِّق كل ما يُقال عن "قصر البارون" في طفولتنا، وكنت أرى

الخوف صريحًا يتمثَّل في عينَيه، وكُنت أحضر له كمًّا هائلًا من المَقالب كُلما أردت الضَّحِكَ، كنت أنصحُ حازم أن يصبحَ موسيقيًّا، فهو يحب الموسيقى بجنون ويعلم تاريخ الموسيقى العالمية بكافةِ أنواعها وتطورها، لكنه يعشق السينما، هو رجل مُنفتح العقل لكل الثقافات، طيب القلب، يهتم بمظهره أيَّما اهتمام، وأراه قد حافظ بشكل كبيرٍ على لياقته أيضًا، وقد أصبح أكثر نُضجًا ووسَامةً في عمرنا هذا، حازم كان ضعيفًا أمام النساءِ، وبشكل خاص الجميلات منهن، ومَن منَّا لا يفعل! لكن كان واضحًا أنه تغيَّر بعدَ الزواج، كانت تجلسُ بجانبه "إسراء سمك" زوجته؛ جميلة، أستطيع أن أجزم بأنها متغطرسة ومُتنمِّرة من الوَهْلة الأولى، عيناها تتفحصاني وكأنها عَميلة سِرِّية، طويلةٌ ونحيفة، تبدو كعارضاتِ الأزياء، حتى إنها تمشي مِثلَهم وتتلفت إلى الجميع وتتحدَّث كأنها مُتسابقة في إحدى مسابقات ملكات الجمال، لديهما ولدان توءمان وقد كبرا إلى حدٍّ جعلني أشعر أنني كبرت! انضمت إسراء إلى كارول، وأبناء حازم إلى أبناء نزار، وبقي المثلث صامتًا للحظات، إلى أن اختفى حازم لدقائق ثم سَمِعت "محمد منير" يشدو ويسأل في عذوبة "كام واد وبنت إتقابلوا عبر السنين.. كام همسة همسوها ولمسة حنين"، أعادني صوت "منير" إلى أنقى سنوات عمري، إلى ذكريات طيِّبة لن تعود، إلى حفلات منير الأسطورية في الأوبرا التي لم يوافق أبي على حضورها، فكانت تحضُر أمي الحفلةَ معنَا وتغنِّي وترقُص معنَا، أعادني إلى صديقتي وحبيبتي التي لم أنسَها إلى الآن.. "ماريز خياط".

وفجأة دخلت ماريز وقطَعت الصمتَ، وبصُحبتها طفلة جميلة نسخة منها، تغيَّرت ماريز كثيرًا، بدَت أجمل بكثيرٍ من ذي قبل، أصبحت في الخامسة والثلاثين من عُمرها، امتلأ جسدُها قليلًا وبدَت أكثرَ أنوثة، خُطواتها أكثر ثباتًا ونضجًا، شعرُها الطويل الأسود ولون بشرتها الأبيض المُشرَب بالحُمرة، عيناها الواسعتان العسليتان تجعلانها في نظري "فينوس" دونَ مناقشةٍ، مسَحت المكان بعينيها، نظراتُها امتلأت بالواقعية والحُزن، حينها رجعت بالزمن سنوات إلى الوراء، وتذكَّرت كل شيء، وإصرارها على خطبتنا لحين مجيء الوقت المناسب للزواج، وإصراري على الهروب منها بنذالة لا أُحسَد عليها.

سافرتُ وتركتها تتزوَّج برجلٍ آخرَ، كنتُ ضعيفًا وخائفًا من المسئولية، وظننت أنني سأنساها بمرور الأيام، لكن هذا لم يحدُث أبدًا، وانقَطعت أخبارها تمامًا وكأنها سكنت كوكبًا آخرَ، كانت حريصة على إنجاح زواجها ونجحت بجدارة، فأكَلتني الغيرة وتوقَّفت عمدًا عن تتبُّع أخبارها، لكن حبَّها لم يمُت، وكأنني حفظته مُجمَّدًا بداخلي، كانت تتجنبني حتى إنها لم تسمح لي بمواساتها حينما توفِّي زوجها منذ سنوات، شعَرت أنها أحبته أكثر مني، فلم أُكلف نفسي عناءَ المحاولة معها من جديد، الآن وقد ذاب الثلجُ من على قلبي.. هل شعوري نحوها حقيقي؟

نظرت لي للحظات وتوقف العالم من حولي، كانت نظراتها باردة جامدة، شعرت بدقات قلبي تتسارع، تعرَّقتُ؛ الأدرينالين اللعين، ببساطةٍ لم يحدُث هذا مع أي فتاةٍ قبلها أو بعدَها، لم أستطع إلّا أن

أبتسم في بلاهةٍ؛ فأومأتْ برأسها في برود، ثم صافَحت الجميع إلّا أنا وصاحت:

- خالوود.. كنّا فاكرينك مِش جاي الأسبوع ده.

أكلتني الغيرة لمّا رأيتها تسلِّم عليه بودٍّ شديد ثم جلسا معًا، ولاحظت أن رنا تُراقبني فقالت:

- خالد دكتور شاطر وإنسان شهم، مِن سنة تقريبًا أنقذ حياة بنتها ومِن وقتها وهُمَّا أصحاب.

علا صوت إسراء، وهي تفتح ذراعيها لابنة ماريز التي هرعت إليها تحتضنها:

- دولا حبيبة قلبي أنا.

قطع حازم غضبي الخفي بكلماتٍ قليلة كعادته بعد أن لمَح ماريز ونظَر إليّ مُتفحصًا..

- اعملوا حسابكم الليلة هَسهَّركم سهرة من بِتُوع زمان.

أردفتُ وأنا أُوارِي حنقِي:

- اتِّفِق مع نزار تبقَى سهرة على قدنا إحنا التلاتة بس، عايزكم في موضوع مهم.

نظر حازم في فضول قائلًا:

- خير؟

أجبته ولا زلت أُتابع ماريز:

- شغل.

- أنا برضه قولت مِش هتنزل مصر إلا علشان حاجة تقيلة.. أنا عايز اعرف من دلوقتي.

- هتعرف.

رأيت خالد يقترب في جلسته من ماريز، يهمِس في أُذنها، يلفُّ يدَه حول خصرها ببساطةٍ عندما تقوم، وأنا أخاف من شعوري تجاهها الآن، لم أستطع أن أكتُم مشاعري كثيرًا ورنا تقتربُ مني فقلت بصوت خافت:

- شايفة قِلة الذوق.. سلِّمت على الكُل وتجاهلتني!

أجابتني رنا بنبرة بها شفقة:

- هي حرَّة يا رامي متِشغلش بالك، الدنيا كلها اتغيرت، واحنا كُلنا اتغيرنا.

كانت كلماتها كمِسمارٍ دقته في عقلي، نعم لقد تغيرنا وتغيرت بنا وعلينا الدنيا، على أن أتقبَّل هذا التغيير، أردفت رنا على استحياء:

- على فِكرة بابا مستنيك تقعد عنده.

التفتُّ إليها فَزِعًا وكأنني تذكَّرت أن دكتور إسحاق لا زال على قيد الحياة.

- أنا هقعد في شقتي في التجمُّع ومتفقين على كِده قبل ما آجي.

قالت في استعطاف:

- يا رامي ده مهما كان بابا.

قاطعتها بحدة:

- هشوفه طبعًا، لكن أقعد في مصر الجديدة تاني؟ مع دكتور إسحاق؟ مستحيل.

إسحاق محمد النحاس

أجلس على الكرسي المتحرك في البلكون وأحتسي الرشفة الأولى من فنجان قهوتي الصباحي، بينما أراقب زوّار قصر البارون الذي يقبع هادئًا أمام بيتنا؛ بيتنا عتيقٌ يقعُ بجانبِ "قصر البارون إمبان"، بناه أبي وولدتُ فيه وجدّدته عبْر سنوات، بوابته الرئيسية حديدية أنيقة ومعاصرة، يعبُرها الزائر ليجد حديقتين صغيرتين على جانبي البوابة يملؤهما أشجار غرستها بنفسي منذ سنواتٍ بعيدة، كبرت الأشجار واحتضنت المبنى وكأنها تحميه من الجانبين، ليدخلَ الزائر بوابة العمارة المكوّنة من أربعة طوابقَ، في كل طابقٍ شقة واحدة شاسعة المساحة.

أستنشق نفَسًا عميقًا ثُم أغمض عيني للحظات مع مرور نسمات صيفية استثنائية، يصرخُ الببغاء الملوّن في قفصه فجأة "كلير.. كلير"، وكأنه يذكرني بها كل صباح منذ رحيلها!

تختلف الحياة اختلافًا كُليًا بعد الثمانين، تراودني ذكريات كثيرة، يوم اشترت كلير هذا الببغاء صغيرًا وأطلقت عليه اسم "سُكّر"، مواعيد المستشفى والعيادة كل صباح، جدول الأسبوع كله مشغول جدًا، والكثير من المرضى والعمليات والسفر والأبحاث والمؤتمرات، الكثير من التحديات، هذه الحياة مليئة بالتحديات.

تحديت رغبة أبي ووصيته "محمد بك النحاس" بأن أصبح مهندسًا معماريًا، نعم خالفتُ وصيته لأكونَ طبيبًا كما تمنيت، كانت صداقته بالبارون إمبان قد تركت أثرًا عظيمًا عليه، كان مبهورًا به وعندما رأى

معمار قَصْره طار عقله انبهارًا، وتمنَّى شيئًا في نفسه لم يُحقِّقه في حياته.

مات أبي أثناء دراستي الطب ثم ماتت أمي قبل التخرج، وتركا لي ميراثًا كبيرًا، وقد أصبحت شابًّا أعتمد على نفسي فلم أنتظر من أقاربي الاعتناء بي، ولم يكلفوا أنفسهم مشقَّة السؤال عندما تأكدوا أنني ورثت كل شيء، وتحديت الوحدة التي لم يكن ليتخطاها أحد خاصة في هذا البيت، ثم جاء التحدي الأكبر في حياتي عندما عزمت في نفسي الزواج من أجمل بنت رأتها عيني.. "كلير إدوارد" جارتي، كنت أصطنع الصُّدف لتوصيلها إلى كنيسة البازيليك كلَّ أحدٍ، لأنني أرتاح بصُحبتها، كانت تفهمني بسلاسة، وتدعمني على الدوام، ويتفتَّت شعور الوحدة بجانبها ولا يبقَى له أثر، الفكرة بالنسبة لأهلها بدَت صادمة في بادئ الأمر رغم صداقتهم القوية بعائلتي في الماضي، لكننا صبرنا حتى تأكدوا من إصرارنا حتى اعتادوا الأمر وتقبَّلوه، وبدأنا حياتنا في سلام وأنا طبيب صغير، ثم كان تحدي المجتمع وتربية أطفال لا يدين آباؤهم بنفس الديانة، أردنا أطفالًا أسوياء في هذه المسألة، استقبلت ابنتي الكبرى "رنا" ثم ابني "رامي" بعدها بخمسِ سنواتٍ، أعتقد بعد كل هذا العمر أننا أبْلَينا بلاءً حسنًا.

ثم جاء تحدي الطب، مهنتي التي أقدسها وأعشقها، وتحديدًا التحدي في هذا التخصص الدقيق كبير، "جراحة المخ والأعصاب"، لكنني تخطيته، بل وتفوَّقت فيه، عمِلت كثيرًا واجتهدت أكثر، وتحدَّيت نفسي قبل تحدي المُنافسات الشرسة، وأصبحت أحد

أشهر الجرَّاحين في مصر في تخصصي، وطوَّرت بحثًا غيَّر الكثير في جراحة دقيقة، وأحرزت تقدمًا ملحوظًا مع حالات نادرة، فزادت شهرتي وارتفع أجري، وبالطبع زادت أعداد المرضى، وبقيث لسنواتٍ أهذِّب نفسي لأمنع غرورًا بدأ ينمو بداخلي.

لكن كل هذه الذكريات لا تفيد في كل الأحوال، بل إنها تزيد وضعي سوءًا؛ لأنني لا أتذكَّر نفسي إلا رجلًا وسِيمًا، رشيقًا، نشيطًا، قويَّ الملاحظة، عندي من الطاقة ما يجعلني أعالج مستشفى بأكملها، كان زملائي يقولون: إنني أتمتَّع بكاريزما خاصة تجعل النساء تحرضني لأخطوَ الخُطوةَ الأولى نحوهم، لكنني كنت أكتفي بحب "كلير".

ولم أتخيل يومًا أنَّ مُخِّي سيَغدِرُ بي! أنا مَن شخَّص وعالَج حالات أشد تعقيدًا من تلافيف المخ نفسه! فقد خانني مُخِّي بعد رحيل كلير بفترةٍ قصيرة وجعلني قعيدًا، بَدِينًا، حزينًا، يائسًا في بعض الأحيان، وكأنه يجبرني على الابتعاد عن الطب والحياة معًا.

ورغم حرصِي لسنواتٍ ألَّا أقصِّر في واجباتي الزوجية، لكن يبدو أنني قصرت! والآن أجلس قهرًا أفكِّر في ابني الوحيد.. رامي، أعلم أن رنا لن تستطيع إقناعه بالإقامة معي كما وعدتني، لن يتخلَّى عن حريته التي امتدت لأعوام كثيرة بعيدًا عني حتى صار رجلًا ناجحًا، لن يتخلَّى عن سلامه الداخلي، فما الذي سيحرك قلبه الآن؟ حتى مرضي لم يحرِّك له ساكنًا، فلم يُكلِّف نفسه عناء السفر واكتفى بمكالمة واحدة فقط، أعتقد أنني لو كُنت مِتُّ لم يكنْ ليفرق الخبر معه كثيرًا؛ فأنا في نظره ميتٌ منذ الصِّغر، وأعلم أن موت كلير كان الصدمة الأعظم له، أنا أيضًا أصبحت يتيمًا بعد رحيلها، استحقَّت

كلير دموعَ الجميع لِمَا كانت عليه من طيبة وتسامح ونقاء لم أصادفهم في الدنيا.

مع رشفة القهوة الأخيرة تحسَّست القِلادة حول رقبتي بشكلٍ عفويٍّ، تبعث طمأنينة إلى قلبي دائمًا حتى مع وجود مفتاح خزينة غرفة المكتب بطرفها، وأقررت أن القسوة والسيطرة لم تنفع مع رامي كما كانت تنصحني كلير، نعم أعترف بخطئي، بقيت لسنوات عدَّة أستيقظ كل صباح وكأنني في كابوسٍ، لقد دفعت ابني الوحيد إلى الهرب مني ومن البلد كلِّها، أردته أن يكون رجلًا مميزًا ونسيت أنه ما زال طفلًا، أردته مهندسًا معماريًا كما أراد أبي لي! بعد أن أصابني القصر بلعنته كل صباح ومساء، وتمنيت لو أن يَبْني رامي أفضلَ منه! أردته أن يكون ما أريد وليس ما يريد مثلما فعل أبي معي، إنه فخُّ الأبوة المُتكرِّر، وبقيت أواجه نظرات كلير اللوَّامة في كل لفتةٍ، وها هو يستقر الآن في مصر ولا يزورني ولو مرة واحدة!

قطعت أفكاري صباح وهي تعطيني الدواء وكوب الماء وتنظر إلى السماء بابتسامتها التي لا تغيب..

- الشمس هتبتدي تشد.. مش تقعد جوّه أحسن؟

لم أُجِبْها فاسترسلت على خلفية الأصوات الصادرة من الشقة:

- أم رحمة قرّبت تخلّص نضافة الشقة وندخل علَطُول.. وعملت لنا على الغدا مسقَّعة.

أخذت الأدوية دون إبداء اهتمام، تبًّا لكلِّ التعليمات والألم والصمت والمرض والحيرة في عقولنا، هل حقًّا سنفهم مغزَى حياتنا قبل أن

نموت؟ مرّت دقائق صامتة ثُم رأيتها شاردة النظر مثلي نحو قصر البارون الغامض، باتت صباح شابّة في أوائل الثلاثينيات، اعتَبِرتُها ابنة ثالثة، فقد ربتها كلير منذ موت أمها التي كانت في خدمة أهل كلير أيضًا، كانت طفلة في الرابعة عشرة من عمرها وانقطع أبوها عن السؤال عنها منذ سنوات عديدة، كبرت صباح لتصبح امرأة جميلة، لكني أرى جمالها الحقيقي في إخلاصها لعائلتي، فقد كانت تحب كلير حبًا جمًّا، وأوصتني كلير عليها كثيرًا قبل رحيلها لأنها وحيدة وليس لها أقارب، أحيانًا أتساءل: ماذا لو تخلَّت عنّي صباح وتزوّجت؟ إنها تشكّل مع دكتور خالد الشافعي ثنائيًا لا مثيلَ له في رعايتي.

وماذا لو سافر خالد للعمل بإحدى الدول العربية؟ خالد لم يكن مجرد تلميذي المجتهد فحسب، خالد كان بالنسبة لي ابن بديلٌ، أعطيته كلَّ ما لم أستطِعْ أن أُعطيه لابني الوحيد رامي، كان يتلقَّى المعلومة ويثقُ برأيي، يُشعرني بأني مهم في حياته، لم يهرب مني كما فعل ابني، لم يتنصَّل من الاعتناء بي في مرضي كما فعَل ابني، لم يخذلني أمام الأقارب والأغراب، يأتيني لمتابعة حالتي أو استشارتي في حالة مُحيرةٍ، أو حتى لاحتساء الشاي معًا، لكن إحساسًا يسيطرُ عليّ كلَّما رأيته يتحدَّث مع صباح، فأراهما كالمُحبين، أرى بينهما كيمياء عجيبة، لكن لمعرفتي بخلفية خالد الاجتماعية، أعلم أنه لن يفكِّر في صباح كزوجةٍ أبدًا ولو كانت الأنسب له؛ ذلك لأنه يهتم بالمظاهر وآراء الناس، ويحبُّ أن ينظر له مَن حوله بعينِ الحاسد؛ لذلك أشفق على صباح من حبها الصامت.

التفتت صباح إليّ وفي عينيها تساؤل لا يغيب:

- القصر ده غريب.. له هيبة بتتجدّد كُل يوم وليلة.

طوال أعوام عمري لم أنظر من البلكون إلّا إلى قصر البارون إمبان، دخلته مرّات لم أُحْصِها عدًّا، القصر يُسمعني صوت أبي يرن بحكاياته الكثيرة عن كواليس أحداثه؛ عن "إدوارد لويس جوزيف إمبان"، عن إنشائه هذا القصر وحبِّه لمصر، عن أبنائه "جان ولويس"، عن الطراز المعماري الشرق آسيوي الذي اسْتَخدمَه والذي لم يكن له علاقة بالعقيدة، أثاث القصر وديكوراته وكل ما قيل عنه وعن لعنته، أسراره، حوادث القصر الشهيرة، "عم عنتر" الرجل الذي عمل بالقصر طفلًا وكان خاله رئيس الطُّهاة، وعن إنشائه مدينة "هليوبوليس" أو "مدينة الشمس"، ترام هليوبوليس، وحديث أبي الذي لا ينقطع عن دعوة البارون وتشجيعه له كأحدِ أصغر رجال الأعمال المصريين لحضور افتتاح كنيسة البازيليك عام ١٩١٤، وهو لم يبلغ العشرين من عمره بعدُ، وذلك تشجيعًا له وإكرامًا لصداقته مع جدي والذي اشتُهر بعقليةٍ عبقريةٍ في التجارة آنذاك، وحتى وصية البارون بالدفن في "كنيسة البازيليك" التي بناها في مواجَهة القصر والتي نفذَّها أبناؤه من بعدِه.

وهكذا شهِدتُ سنوات مَجدِه، ثم تسجيله كأثرٍ في عام ١٩٩٣م ، ونكّسته في أواخر التسعينياتِ على يدِ "عبَدة الشيطان" كما كانوا يُلقبونهم، أتذكّر أنني دخلت عليهم ذات مرةٍ القصرَ ونهَرتهم، فأنا أغار على القصر كغَيرتِي على بيتي، هذه الليلة هددني شابٌّ بمطواة وبدَا مخمورًا، تراجعتُ مُستسلمًا أمامه ثم أبلغتُ الشرطة وتمّ القبض عليهم جميعًا وعاد القصر هادئًا مرة أخرى، ثم حيازته للحكومة عام

.٢٠٠٥

قاطعني صوت صباح مرة ثانية:

- حضرتك متضايق من حاجة؟

نظرت لها عالمًا بما تفكّر فيه وأشرت بالنفي، لكنها استرسلت بعطف:

- رامي أكيد هييجي، هو ملوش غيرك بعد مامته الله يرحمها، هتلاقيه بيظبط أموره ويومين تلاتة ويبقى هنا، دكتور خالد قالي إنه شافه في الساحل وعِرِف إنه مش هيطوّل هناك.

ابتسمت بسُخرية ونظرت إلى الشمس التي اشتدت أشعتها فوق رءوسنا، وتذكّرت تعليمات خالد بالابتعاد عن الحرِّ الشديد فأعطيتها فنجانَ القهوة، وضغطت على أزرار الكرسي المتحرِّك لأغادر البلكون، وأدخل إلى غرفة الاستقبال مرورًا بالصالون العَتِيق تاركًا شفقتها وذِكريات قصر البارون وأسئلة في رأسي تؤلمني، ثم قلت:

- كلمي خالد وخليه ييجي.

تلعثمَت وهي تقول بشيءٍ من الضِّيق:

- خالد هيرجع كمان كام يوم من الساحل.

إنها تتابع خُطواته بشغفٍ. توقَّفتُ وزفرت زفرةً طويلة:

- كلِّمِيلِي رنا وخلِّيها تِيجي.. حتى لو كانت في الهند.

رنا إسحاق

تَرَكتُ أبنائي مع زوجي عندما أخبرتني صباح أنَّ حالة والدي المزاجية سيئة ويُريد أن يراني، لا أستطيع أن أتأخَّر عليه في أي طلبٍ، خاصة بعدَ أن أصبح قعيدًا ووحيدًا، وأحْمَدُ الله على وجود صباح، فهي تعمل في المستشفى صباحًا وباقي الأوقات ترعَى أبي وكأنَّها تعمَلُ بدوامٍ كاملٍ؛ لذلك لا أكتفي بوصية أمي قبل مرضها أن نستمرّ في التكفُّل بها وكأنها أخت لي، بل أُعطيها مرتبًا شهريًا نظير رعايتها لأبي، رتَّبت أمي أمورًا كثيرة قُبيل موتها وكأنّها كانت تعلم متَى النِّهاية!

في طريقي منفردة من الساحل الشمالي إلى القاهرة، طاردت خيالي ومَضَات خاطفة من الطفولة، كُنت أمهر من يَرسُم قصر البارون، وأرتاح لكونه قصرًا بلا ألوانٍ فلا تفرض عليه سِمة بعينها، أرى رامي يلعبُ معي في حديقة نادي الشمس وسط أصدقائنا، كان الزمن أجمل وأبسط من زمننا هذا الذي انتزعت منه براءة الأطفال، الآن أفهَم كيف كانت تبذُلُ أمي الكثيرَ من الجُهد لإسعادنا، وكذلك أبي، الفرق بينهما أنها كانت تعبِّر عن مشاعرها بكافةِ الطُّرق لكلينا أنا ورامي، لكن أبي كان مختلفًا، كان حنونًا معي مُلبيًا لطلباتي، شغوفًا بسَماع قِصصي رغمَ انشغاله كأحدِ أكبر أطباء مصر في جراحة المخ والأعصاب، وكان بين مسئوليات المستشفى والعيادة يجتهد في تدليلي، فكان حبي الأول، وعندما كبرت أردت أن أتزوَّج رجلًا مثله، عطوفًا وصبورًا معي؛ لذلك كانت أسوأ أيام حياتي بعد وفاة أمي بفترة قصيرة، يوم أن ذهبت بالصدفة لأطمئن عليه لأنّ صباح كانت

في المستشفى وكان وحيدًا، دخَلتُ الشقة فوجدته مُمدَّدًا أمامي على أرض الصالون، والسائل الأبيض يخرج من فمه، كان جسده باردًا وظننت أنني فقدتُه، لكن الله أنعَم عليّ وأعاده إلى الحياة مرةً أخرى بعد إنقاذه من جلطة في المخِّ، لكن داخل كرسي متحرِّك.

ومع كلِّ هذا الحنان والاحتواء كان أبي يقسو على رامي منذ طفولته كثيرًا ظنًّا منه أنه بذلك يصنعُ رجلًا، حتى إنه كان يوبِّخه بشدة عند أي غلطةٍ، الأمر الذي باعدَ بينهما وأحدَث فجوةً في العَلاقة لم تقدر على معالجتها الأيام، ولم تشفع محاولات أبي المستمرة خلال سنوات في استرضاء رامي بعد سفره، وإن كان رامي يؤكد على نِسيانه للأمر، وأنه لا يأتي لزيارة مصر لانشغاله المستمر في العمل، إلا أنني أعلم أنه لم ينسَ كل ما عانى منه في طفولته مع أبي.

وفي ذكرياتي مع أمي لا ينفصل رامي عنها أبدًا، كان محورَ حياتها، وكانت تتذكَّره في كل كبيرة وصغيرة، روحها مُتعلقة به وكأنها لم تُنجب غيره، كنت أتضايق لكنني تفهَّمت الأمر من جميع جوانبه عندما أنجبتُ، كان عليها أن تكون كذلك مع رامي؛ لأن علاقته بأبي كانت مُعقدّة، علاقة أب يبدو قاسيًا حازمًا مع ابنٍ مُرهَف الحسِّ، ذكي، لمَّاح، يحب أن يحافظ على مظهره أمام الناس لا أن يُوبَّخ أمامَ أصدقائه، ويُضرَب أمامنا في البيت، بل أحيانًا أمامَ بعض الأقارب! كنتُ أسمع رامي في طفولتنا يبكي وحيدًا في غرفتِه، وعند سؤالي عليه يدّعي القُوة واللامبالاة، كنت أشعر بضعفه؛ لأن أبي لم يمنحه القُوةَ قطُّ.

رنَّ الهاتف وجاء صوت زوجي هادئًا كعادته:

- بنتك عايزة تبات عند صاحبتها في "هاسيندا باي" وخايفة تقولِّك، أنا قُولتلها تروح، البنت مبقتش صغيرة دي خلاص داخلة جامعة.

يعتقِد زوجي أنني مُعقدة قليلًا في تربية الأولاد، أو أنني أنتمي إلى مدرسة قديمة لا تتماشى مع عقول الأبناء الآن؛ لذلك وافقته على مضضٍ، لكني انشغلتُ بشيء آخرَ، ابني الأكبر يَدرُس في كندا وابنتي الصُّغرى على وشْكِ اللحاق به، أنا الآن في الخامسة والأربعين، كنتُ أنظُر إلى هذه السن في العشرين من عُمري وكأنني لن أصلَ إليها إلا بعد انقضاء دهرٍ طويلٍ، لكنني وصلتُ إليها في غمضة عين! وتنبَّهت أنني أكرِّر كلمات أمي في هذا الأمر! وتذكَّرت وجْهَ أمي البشوش الذي أفتقده بشدة.

أتذكر ذلك اليوم الذي سافر فيه رامي، لم تنم أمي هذه الليلة، تفقَّدتني لتتأكدَ أنني نائمة عدَّة مرات، وبقيت تروحُ وتجيء من غُرفتها لغرفته، سمِعتهما يتهامسان، لقد ضاق رامي ذرعًا بتحكُّم أبي المُستمر في كل شيء ، ولومه له لأنه لن يُصبح مهندسًا معماريًّا كما تمنَّى، وحاول إقناعه أن التكنولوجيا هي المستقبل، لكن أبي لسببٍ غير معلوم كان يريد أن يُسيطر على مستقبل رامي؛ لذلك حسم أخي الأمر بالسفر وساعدته أمي بكلِّ ما استطاعت، رغم أنه لم يُنهِ دراسته الجامعية بعدُ، ذهب في بادئ الأمر إلى ولاية "بوسطن" عند أحد أقاربها، وكانت قد أعطته مبلغًا كبيرًا، وهيَّأت له كل شيء دونَ عِلم أبي، لكني كنت أعلم خُطتهما، سيُكمل رامي دراسة البرمجيات بالخارج، وسمِعت بكاءها وهي تودِّعه ثم صوتَ إغلاق باب الشقة، ثم

صلاتها بصوتٍ خافتٍ كي لا يستيقظ أبي، أتذكَّر أنني لم أذقْ طعمَ الراحة هذه الليلة.

في صباح هذا اليوم الذي لم أنسَه اجتمعنا في الإفطار على المائدة، وسأل أبي عن رامي فأجابت أمي بتلَعثمٍ أنه نائم، وبعد أن اكتشف أبي عدم وجوده في البيت، مثَّلت أمي دورها بمهارة إلى أن اكتشف أبي لاحقًا أن ابنه الوحيد تركه وترك البلد، ولم يعُد تحتَ وصايته أو حمايته، كان الهروب انتقام رامي حينها، ودخل أبي في مراحل نفسية مُعقدة وقاسية، كنتُ أشعر بكسرته، وندمِه أحيانًا، لكنه كان قاسيًا حتَّى مع نفسه، لم يسمح لنفسه بالإفصاح عن مشاعره، ولم يسمح لأحد بمواساته أو حتى الوقوف بجانبه، وتدريجيًا بعد رحيل رامي تغيَّرت روح البيت، وحَزِن أبي وذَبُلت أمي، وانعكس كل ذلك على الجميع كُل على حِدةٍ، حتى حفل زفافي لم يحضره رامي، وقد أحدَث بهذا جرحًا غائرًا لنا جميعًا، أبي وأمي لم يفرحا كما كان ينبغي لهما، لم أشعر بفرحتهما إلا عندَما أنجبت أحفادهما، لكن عندما سافر ابني ليدرُس في الخارج كُسر قلب أمي من جديد، ولم تعلم أمي بأنني علمت خُطتها مع رامي حتى وفاتها.

بعد علمي بقرار رجوع رامي تهوَّرت بحماس ووعدت أبي بإصلاح علاقتهما، وكان إقناع رامي بالعيش مرة أخرى مع أبي فِكرة غير محسوبة على الإطلاق، ماذا سأقول لأبي الآن؟ ابنك الوحيد لا يريدُ العَيش معك؟ بل إنه لا يريد رؤيتك؟ أقول إنه لم يتخطَّ محنة الطفولة التي كنتَ أنت سببًا في حدوثها؟ المشكلة الأكبر التي لا أعلم كيف أواجهها هي سفري القريب لابني مع زوجي وابنتي،

كيف سأتركك أبي؟ هل أتركه في رعاية صباح وخالد؟ هل من العدل والمنطق أن يراعي أبي دكتور وممرضة في حضور ابنه؟ وماذا سيقول الناس عنَّا؟

مرَّ الوقت سريعًا على عقلي ولاحظت أن سيارتي توقفت أمام قصر البارون، هذا القصر الذي أعتبره بيتي الثاني، أعتبره جزءًا لا يتجزأ من طفولتي وعُمري بأكملِه، دائمًا أتذكّر الأصوات المُريبة الصادرة منه، والتي كُنا نسمعها في منتصفِ كل ليلةٍ، وكما مرَّ الوقت سريعًا في طريقي لم أشعر بنفسي بعد إغلاق باب السيارة إلا وأنا أنحني لأقبِّل جَبينَ أبي في غرفة الاستقبال، وصوت فيروز يُجلجل "سألوني الناس عنك سألوني قولتلهن راجع إوعوا تلوموني"..

- حبيب قلبي عامل إيه؟

نَظَر إليَّ أبي في لومٍ يغلّفه الحنان وأدار زرَّ الكرسي المُتحرك إلى البلكون وهو يقول:

- طول عمرك بكّاشة.

أعلم هذه المُقدمة جيدًا، سيسألني عن رامي بلا شكٍّ، لم أجبهُ فاسترسل:

- أخبار الولاد إيه؟ هتسافروا إمتى؟

انطلق الببغاء يكرِّر "رنا.. كلير.. كلير"، تحدثت وأنا أهرب بعيني نحو قصر البارون:

- أول الأسبوع الجاي.

دخلت صباح تحمِل القهوة وهي تبتسم في ودٍّ وقالت:

- عايز حاجة يا دكتور؟

نظر لها أبي مُتفحصا وقال:

- إيه يا صباح الوجاهة دي كلها؟! على فين؟

أجابته في ثبات علمت أن وراءه كذبة:

- هشتري شوية حاجات.. بس مش هتأخَّر، هاجي قبل ما رنا تمشي.

لا أعلم لماذا حملت نظراته شفقة لها وقال:

- خلِّي بالك على نفسك يا بنتي.

تحرَّكت صباح نحو باب الشقة لكن عينَيه كانت ملازمة لها، وقد زفرَ زَفرة طويلة وهو يلتفت إليّ ويقول:

- حازم جمال صاحب أخوكِ.

- ما له؟

- ولدٌ جميل، تخيَّلي بيطمِّن عليّ تقريبًا كل يوم! كأنه ابني.

علمت مَقصده وهو يبتسم في يأسٍ وتحرَّجت منه، يا ليت قلب رامي يُسامح ويخضع لضعف أبي، وتمنيت أن تبتلعني الأرض وعلمت أنه لن يسأل عن رامي مُجددًا، وفيروز تردِّد أغنية أخرى "على طول أنا ويّاك وسنين بقيت جَرِّب فيهُن أنا إنساك ما قدرت نسيت"!

حازم جمال

عاد مثلث برمودا إلى موقعه سالمًا بعد عودة رامي، لم أتخيل أن يكون بهذه الشجاعة بعد أن استقر عشرين سنة في أمريكا، كُنت أول الحضور على المنضدة المحجوزة في أحد أفخم الفنادق، أحتسي مشروبي وأدخّن سيجاري وأنا أتذكّر أيامنا معًا بطريقة لا إرادية، فأنا ورامي ونزار لم نفترق منذ سن الحضانة، مررنا معًا بكلِّ المراحل المختلفة في المدرسة، حتى في النادي كنّا نلعب معًا كرة القدم والبولو، ساعَدنا على ذلك الجيرة وتفاعل عائلاتنا مع بعضها البعض، إلى أن جاءت المرحلة الجامعية ودرس رامي في الجامعة الأمريكية، ودرست أنا ونزار في معهد السينما، وبدأنا العمل معًا.

نشأت في أسرة مَيسُورة الحال، كان أبي يشغل منصبًا حكوميًا مرموقًا في إحدى الوزارات؛ شخصية جادة ومُقتضبة بعض الشيء، جعلني وشقيقتي الوحيدة نفرّ منه أغلب الوقت إلى أمي، والتي شغلت منصبًا كبيرًا أيضًا في التلفزيون المصري، وكانت على العكس تمامًا فهي مرحة ومتفائلة في أشد الأوقات صعوبة، وهو ما جعلني أميل إليها، وإلى الآن ألجأ إليها في استشارات جدلية، علّمتني أن أنظر إلى الأمور من عدة جوانب وأنتقي أحسنها، وألّا أحكُم على أحد لأني ببساطة لست هو؛ لذلك لم أحكم أبدًا على موقف رامي من والده، أنا فقط أُشفق عليهما وأطمئن على دكتور إسحاق كلّما استطعت، أحاول سدّ خانة هامة بالنسبة إلى البشر جميعًا وهي "الاهتمام".

ورغم أنني لا أحب اقتحام خصوصيتي حتى من أقرب الناس، فإنني كنت أتحمّل أبي عندما يفعل ذلك، ودائم البر به، وفي هذا يرجع الفضلُ لأمّي أيضًا، أمي التي لم تعترض أو تتدخَّل في قرارات حياتي، وبالأخص في قرار زواجي كما رأيث في زيجات بعض أصدقائي ومعاناتهم مع أمهاتهم، وتزوجت إسراء بعد قصة حب مليئة بالتحديات والعقبات والتشكيك في مستقبلنا معًا، وأنعم الله علينا بتوءمين هما قُرة عيني وأجمل ما حدَث في حياتي، هل حقًّا مرَّ أكثر من تسع سنوات على زواجنا؟! أزعم أنني تغيَّرت كثيرًا، لم نكنْ لنستمر كل هذه السنوات لولا أننا تعاهدنا على أن نظلَّ أصحاب مهما حدَث.

جاء رامي في ميعاده تمامًا حاملًا حقيبة كبيرة، ثُم نزار بعده بدقائق، جلس ثلاثتنا على منضدة من ثلاثة كراسٍ لنشكِّل مثلثًا افتقدناه لسنواتٍ، لا زال رامي يتمتع بكاريزما متفردة؛ حاد الملاحظة، دقيق المعاني، حديثه شافٍ وافٍ كما يقولون، إضاعة الوقت بالنسبة له كُفر بقيمةِ الحياة؛ لذلك تحدَّث مباشرة وهو مائل للأمام نحونا وينظر بالتوازي في عيني وعين نزار الذي بدَا متحمسًا مثلي وهو يُدخن سيجاره بهدوء، أردف رامي:

- مطوِّر برامج، ومُنتج، ومدير تصوير، خَلطة سحرية نقدر نعمل من وراها شُغل حلو..

أشعلت سيجارة وقد غلبني الفضول وقلث مع أول زفير:

- من غير تشويق.

اعتدل رامي في جلسته وقال:

- الميتافيرس.. شيء مش جديد، لكن مش متداول في مصر، أول ما نزل الآيفون ماكنش متداول لكن بعد كده طبقات كتير مش بتشتري غيره ولو حتى بالتقسيط، الموبايل عامل أضعاف مرتباتهم لكن مش عارفين يستخدموا حاجة غيره، دماغهم اتبرمجت عليه، هو ده اللي أنا عايز أعمله مع الميتافيرس، حاجة تجذب كل الأعمار، تكون مُفيدة علشان الآباء اللي زي حالتكم ميعترضوش، دماغهم تتبرمج على استخدامه يوميًا، مشروع من خلاله نجيب رعاة رسميين، هينتشر الأول في الطبقات اللي فوق، بعد انتشاره هيبقى بالقسط بفوايد محسوبة.

نفث نزار دخان سيجاره وقال:

- إنت قلت إنه مش جديد، إيه الجديد اللي يخلي الناس تشتريه؟ أنا وحازم هنعمل إيه؟

أخرَج رامي ملَفّين متطابقين من حقيبته وأعطى واحدًا لكلٍّ منَّا وهو يقول:

- مبدئيًا أول مرحلة من عِدة مراحل هتكون سياحية، هنصوَّر معالم مصر المميزة، وحتى المُهمَّشة ونعرَّف الناس عليها، طبعًا بالتعاون مع وزارة السياحة، هنغطيها كلها بجودة عالية تحسِّس المُستخدم إنه بالفعل جوَّه المكان، بيلمس كل حاجة، بيشم هوا المكان، مع راوي يحكي تاريخ المكان، فيه مِيزة هتبقَى عندنا مش عند حد تاني، النضارة هتبقى أصغر وأخف.. المفاجأة إن دي هتتصنَّع

هِنا في مصر، ومعايا عيِّنة كَمان.

أخرَج رامي عيِّنة النظارة التي لا أقول إلا أنها أبهرتني، وأخذ يسترسل في عرض تفاصيل المشروع، فقاطعته وأنا أتفحَّص النظارة:

- واضح إن دراسة الجدوى مِش سايبة حاجة، أفهم بقَى ليه بتخاطر في مصر؟ مع إن فيه أسواق أسهل مننا..

ابتسم رامي:

- كل سوق وله حيتانه، على الأقل هنا إنت فاهم سيكولوجية المُستهلك، سيبلي أنا الموضوع ده.

أقنَعني رامي كما كان يفعل في الماضي، ثم ارتاح في جِلْسته أكثر ربما لأنه قرأ القبول في وجوهنا وأكمل بأريحيةٍ.

- إنتوا أكيد عارفين إني بكره الشَّراكة عمومًا، ومِش محتاج فلوس طبعًا، لكن معاكم الموضوع مختلف، رامي وحازم ونزار.. الموضوع هيختلف، وانا مش هحتفظ لنفسي بالنسبة الأكبر لو وافقتوا نبقى شركاء، الموضوع بالنسبة لي مِش مكسب مادي بس، هو تحدِّي واستقرار.

لمست شعورًا مختلفًا أثناء حديثه، لا أعلم لماذا تذكَّرت ماريز وأونكل إسحاق في هذه اللحظة، شعرت أن رامي يريدُ أن يُثبت نجاحه الذي لم يشعر به أحد في مصر، يُثبته لأبيه الذي خَذَله منذ عشرين عامًا، وإلى ماريز التي خذَلها هو، ورأيث الغيرة تأكله لمَّا رآها

مع شافعي في الساحل. أطفئت سيجارتي وقلت:

- أنا واثقٌ فيك وموافق جدًّا بأي سيناريو.. المشكلة الوحيدة إمتى هنبتدي فعليًّا، إحنا داخلين على موسم وانا ماضِي مسلسل وفيلم.

أردف رامي بهدوء:

- لا، إطمن من الناحية دي، أنا مجهز كل حاجة مع المحامي من قبل ما ارجع مصر، العقود جاهزة على الإمضاء، لو من الأسبوع الجاي ننزل تمام، هبعتلك تفاصيل التصوير؛ لأن له شروط معينة.

نظر نزار إلى الملف ثم قال وهو يتبادل نظرات لامعة بيننا:

- أنا معاكم أكيد.. نعمل جدول بأماكن التصوير ونرتِّب كل شيء.

ابتسم رامي وقال:

- إن شاء الله تبقى فاتحة خير.

لمَحني رامي وأنا أفكِّر وأنظُر في ساعتي وجدول الموبايل فقال:

- إحنا في يونيو صحيح.. إوعى تكون لسه بتحضَّر مهرجان موازين في المغرب؟

ضحكت بعفوية لما تذكَّرت الأيام ونحن نضرب الأكُفَّ ببعضها وقلت:

- كانت أحلى أيام، دلوقتي السفر مع الولاد له ترتيبات تانية خالص، العيال في السن ده مقرفة، هقوله تعالى أسمَّعك موسيقى جناوة؟ مستحيل.. عايزين ديزني وهوليود يا بابي..

ضحك رامي بشيء من الشماتة وقال:

- ربنا معاكم.. المهم ننجز أكبر قدر ممكن من الأماكن وبعدين شوفوا حياتكم وسفرياتكم.

رن هاتفي وكانت إسراء فلم أُجبْها لحين انتهائي من اجتماعنا؛ لأنني أعلم مُسبقًا ماذا تريد، لا بد أن الأولاد أفقدوها صوابها والدادة في إجازتها السنوية، سأهاتفها في طريقي، لكن هل ستفرح بهذا المشروع؟

إسراء سمك

أجلس على أريكتي المفضلة، أنفُث دخان سيجارة في آخر يوم مرهق بعد أن خلَد الأولاد للنوم بأعجوبة، كلّما أخذت مربية الأولاد إجازة أتعرَّف على أهمِّيتِها في حياتي من جديد، لا أعلم من أين تأتي بكلِّ هذا الصبر! لقد طلبتُ من مديري إجازة لحين عودة المُربية، وهذا شيء عظيم بالنسبة لي؛ لأنني لم أعْتَدِ الجلوسَ في البيت، ولأنني أحب عملي في إحدى الهيئات الرسمية الرفيعة المستوى، ولهذا لم أفكّر يومًا منذ زواجي في ترك العمل لأي سببٍ من الأسباب حتى الإنجاب، فالعمل يعطيني مساحة من الحُرية والاستقلالية، والإجازة اليومية ولو ساعات من حياتي الزوجية، أعتقد أن الزواج في العموم Over rated، شيء يمكن التحايل عليه أو حتى الاستغناء عنه، هذا ما أشعر به هذه الأيام؛ أفتقد حنان أمي الزائد، البيت المُرتب دائمًا بدون مسئولية، الطعام الذي ينتظرني دون تعبٍ، دون عناء التفكير "ماذا سأطبخ اليوم؟"، وهذا لأن زوجي يمتعِض كل مرة يأكل فيها من يدِ طباخ محترفٍ! أفتقد فُكاهة أبي المستمرة وسخريته من الجميع، أفتقد اتكائي بكلّ ما أحمل من أوزان الحياة على أخي السند الذي لا مَثيل له، وأفتقد هروبي من البيت عندما كانت تزورنا أختي مع أولادها، لم أكن لأتحمل الأطفال أبدًا؛ صُراخهم وجنونهم، انقلاب البيت إلى سيرك قوميٍّ، اختفاء الأشياء وتكسيرها مهما كانت ثمينة، كنت أحرص على علمي بمواعيد زيارتها لأرتِّب الهروب القادم إلى مكانٍ أشعُر فيه بالراحة والتسلية.

أحيانًا أخرى أشعُر أنني لم أكن لأعيش بدون حازم والأولاد،

لكن الأمر في العموم صعب وروتيني ومُرهق ويتطلب الكثير من التضحيات، وبالأخص من طرف السيدات.

أخبرتني كارول أنها بصحبة ماريز وأنهما ستتقابلان في أحد المطاعم للعَشاء، اعتذرت لأنني مرهقة، وعندما سمِعَت ماريز إجابتي قالت على الفور إنها ستُحضِر عشاءً فخمًا وستأتيان به، وشعرت أن كارول لم يعجبها اقتراح ماريز، فهي امرأة مُدللة تقتصر حياتها بين النادي ومراكز التجميل، أعلم أنها لم تُطقِ العملَ ليوم واحد منذ سنوات، لكنها تفهم جيدًا عن حشوات السيليكون والبوتوكس، وبعد كل هذا تعترض على أي رأي، لا أعلم لماذا أحبَّها نزار من البداية، وهو شخصية عملية! ولا أعلم كيف تتحملها الشخصية الأبسط.. ماريز.

أغلقت الهاتف ومع آخر أنفاس سيجارتي استقبلت اتصالَ حازم، تعوّد زوجي على الاتصال بي في آخر يومِه وهو في طريقه إلى البيت! لماذا لا ينتظر حتى يراني؟ لأنه عندما يدخل البيت لا يريد أن يتحدَّث! فقط يريد الاسترخاء، وهكذا تعوّدت أن أُنصت باهتمام إلى آخر اتصال في يومِه باهتمام، آخر أخباره اليومية، تعودت منذ سنوات بعيدة حتى قبل خطوبتنا، أو هكذا أوهمه أحيانًا.

في هذا الاتصال علمت عرض رامي وتحمّست له مثل حازم ونزار، رغم أنني أملك بعض علامات الاستفهام على شخص رامي نفسه، لكنني لا زلت مُتحمسة، لأنني رأيته رجلًا ناجحًا يريدُ أن يثبِّت أقدامه في بلده وينجح مثلما فعل بالخارج، مشروع كهذا سينطلق بسرعة الصاروخ خاصة بين الطبقة العليا كبداية، ثم يبدأ في الانتشار تدريجيًا أو ببطء نظرًا لارتفاع التّكلُفة في ظل جنون أسعار

الدولار، حينها ستملّ الطبقة العُليا منه، لكن هذا لن يهم؛ لأننا سنكون قد حقَّقنا مكسبًا لا بأس به، والأهم حققنا انتشارًا، واحتكارًا، ثم يأتي المكسب المؤكد من باقي طبقات المجتمع، هؤلاء المغفلون يشترون كل ما لا يستطيعون تحمل سعره لأسباب بائسة، أهمها محاولة إيجاد فرصة مجتمعية أفضل، لا يفكرون أن غالبية المجتمع العامل قد تتساوى الآن في المظاهر عمومًا، فالجميع يمتلك سيارة وتليفونًا باختلافِ الماركات، نحن نعيش في عصر الرفاهيات والجميع يسعى إليها، وهذه هي الفرصة الحقيقية للمستثمر، أن يملأ الفراغ الداخلي الكبير عند المُستهلك، أنا سعيدة بعرض رامي سيكون مشروعًا مذهلًا، وسوف أُساعدهم بقائمة طويلة من الأماكن المقترحة للتصوير، بل إنني أتوق إلى حضور التصوير معهم.

رنَّ جرس الباب رنات متتالية، عندما فتحت الباب كان حازم يحاول فتح الباب بمفتاحه ومن ورائه كارول وماريز تحملان العشاء وتضحكان، قبَّلت خدّه في حميميةٍ وأنا أسألهم:

- إتقابلتوا فين كده؟

رد قُبلَتي مُبتسمًا:

- في الجراج واحنا بنِركِن.. دول جايبين أكل.. ينفع كِده؟!

- ينفع عادي، ما أنا بعزمهم كتير.

في المطبخ أفرغت أطباق الطعام بمساعدة ماريز، في حين جلست كارول في غرفة المعيشة تلعب في شعرها ببرودٍ، وبقينا نبتسم ابتسامة الثعابين لبعضنا البعض، أنا لا أُحبها ولا أكرهها أيضًا، هي

فقط تستفزُّني.

على المائدة جلسنا نحن الأربعة، وأثناء تناول الطعام أخبرت كارول بمشروع رامي كيدًا؛ لأنني أعلم أن نزار لا يتحدَّث معها في أمور العمل، وأعلم أن هذا الأمر يُضايقها، لكنها بارعة كعادتها في إخفاء مشاعرها، فتبرعت قائلة:

- حازم.. مينفعش يبقى البارون قُدامنا ومنبدأش بتصويره.. أول أثر تصوروه هو البارون.. ده كان حلم حياتك.

قال حازم بقلقٍ شعرت به:

- هنصوره أكيد.. ممكن نشوف أونكل إسحاق أكيد يعرف حد جوَّه يسهِّل التصاريح.

أردفت بتعجرفٍ قصدته أمام كارول:

- "بترا" مديرة القصر صحبِتي من أيام المدرسة، أكلمهَالَك هتخلصلكم كل حاجة.

قال حازم كأنه تذكر شيئًا :

- قصر البارون ده كان مسيطر على تفكيرنا واحنا صغيرين.

نظر إلى كارول وكأنه رجع بالزمن وقال:

- تخيَّلي كل يوم تفتحي الشباك تلاقيه في وشِّك، شفناه في كل الأحوال، كان نفسي أعرف اللي حصل في التسعينيات ده بجد ولا لأ؟ وهل موجودة القصص المرعبة دي لحد دلوقتي؟

قالت كارول في ملل:

- متخيلة.. ده نفس كلام نزار.

ثم نظر إليَّ مُستفسرًا وقال:

- تفتكري رامي هيفرح ولا يضايق لو قولتله نبتدي بالبارون؟ أنا بحسّه بيتجنّب يجي مصر الجديدة أصلًا.

وهنا رنَّ هاتف ماريز فأجابته على الفور وقد قامت من مكانها ودخلت البلكون:

- أيوه يا نزار....

بعد دقائق عادت وكان ملحوظًا أننا ضايقنا ماريز دون قصدٍ، أو أن نزارَ ضايقَها لا أدري، وتغير وجهها حين استمر حازم في التحدُّث بحماسٍ عن المشروع ويردِّد اسم رامي كثيرًا دونَ قصدٍ، وكأن القَدَر تحالف معنا كي نعيد مشاهد ذكرياتها إليها الآن.

تركت ماريز المائدة وذهَبت إلى الحمام وسط نظراتي التحذيرية المتأخرة له، الجميع يعلم قصة رامي وماريز، والجميع يعلم نذالة رامي، ربما كان علمي بهذه القصة أحد أسباب عدم محبتي الخالصة له، فأنا لا أحبُّ الرجل النذل مهما كانت الظروف.

تهامست مع حازم لكي يكفَّ عن الحديث لكنه اعترض قائلًا:

- ده شُغل! وهو خلاص بقَى في مصر، وأخوها أصلًا شريك يعني هتخبط فيه كتير.

قالت كارول ببرود:

- حازم عنده حق.

خرجت ماريز من الحمام ثُم أمسَكت حقيبتها وهي تُحاول أن تبدو طبيعية وقالت:

- معلش يا جماعة مش عايزة أتأخر على دولا أكتَر من كِده.

لا أعلم لماذا تُعطي بنات حواء الرجل فوقَ قَدْره! لماذا تُفسد أوقاتها في هذا العبَث! فأي رجل هو مجرَّد رجل، وقفت مُنتفضة وبداخلي شعور غير معتادٍ بالذنب وقلت:

- طيب كمِّلي أكلك.

ابتسمَت ماريز على استحياء وقالت:

- هتأخر.

ثم رنّ هاتفها ورأيتها عبست لما رأت "رنا إسحاق " تتصِل، سألتها:

- إنتي جاية في عربية كارول مين هيوصَّلك؟

ربَّتت على كَتِفي ثم نظرت لكارول التي كانت تأكل في برودٍ ولم تُحرِّك ساكنًا وقالت- وما زال جرس التليفون يرن-:

- خليكي انتي يا كارول أنا طلبت أوبر.

عند باب الشقة ودَّعت ماريز وأنا أُشفق عليها من ماضٍ لن يجلبَ لها إلَّا الشقاء.

ماريز خياط

عندما رأيته تلك الليلة شعَرت باشمئزاز شديدٍ، وتذكَّرت كلَّ ما حدَث في ثوانٍ معدودةٍ، وكأنه شريط سينمائي يمر أمام عيني، عائلاتان أصبحت علاقتهما أكبر من الجِيرةِ، كُنَّا أهل؛ صداقة أمي وأمه تُعد من الصداقات العظيمة، لم يفرقهما إلا الموت، صداقة رامي إسحاق وأخي نزار أيضًا سارت على نفس النَّهج وكانت مميزة، لكن علاقتي أنا بِهِ كانت مُختلفة، كبرنا معًا وتحركت مشاعر حبّنا في سنٍّ مُبكرةٍ، لم تكن مشاعر مراهقة، بل حقيقية، عاشت بداخلي ورفضت التخلي عنها مثلما فعل هو، كنت أتجاهل تودُّد البنات إليه؛ لأنني كنت أثقُ في حبِّه لي، حتى مغامراتنا معًا داخل قصر البارون كانت مُخيفة لكنها ممتعة، أحببت كل شيء معه، حتى حكايات أبيه دكتور إسحاق النحاس عن القصر التي لا تنتهي كل يوم جمعة، كل هذا تجسَّد أمامي وقشعريرة سرت في جسدي، ثم ألم في مَعدتي اعتدته لسنواتٍ ولم يهدأ إلا بوجود زوجي "شريف".

هذا الرجل الذي أدار دفَّة سفينة تغرق وسط أمواج متلاطمة إلى برِّ النجاة، بعد تشتُّت عرفته لأعوامٍ كاملة أثناء علاقتي برامي، وبعد انسحابه المفاجئ من علاقتنا صُدِمتُ بشدة، وانتابتني نوبات اكتئاب عنيفة، لكني تغلَّبت عليها عندما التحقت بالجامعة الأمريكية ودرست التسويق وأحببته، ونسيتُ رامي تمامًا، والتحقتُ بعد التخرُّج للعمل بشركة تسويقٍ جديدة يمتلكها "شريف"، وهو زميل سابق بالكلية تخرّج قبل دفعتي بدفعتين، انجذبتُ إليه في حرص، وبذل جهدًا كبيرًا ليكسر الجليد بيننا ويكسب ثقتي ويُعيد الحياة بداخلي،

وحينما عرض الزواج بي لم أتردّد في قراري، وعشت معه أجمل سنوات عمري، قضينا ثلاث سنوات من الحرية معًا، نسافر ونسهر ونكتشف بعضنا البعض، وأشكر الله على لقائه، ثم أنجبت أغلى ما في الحياة ابنتي "دولا"، وبعد أن أتمت عامها الثاني انتقل شريف إلى الأمجاد السماوية، بعد اكتشافنا إصابته بسرطان الرئة في مرحلة متأخرة، كان الانتقال سريعًا ولكنه عانى كثيرًا، كنتُ أدعو الله كل صباح أن يرحمه، وعندما رحمه ذهب بغيرِ رجعة منبع سعادتي، هذا الحلم لم يدُم إلا خمس سنوات فقط، والآن وقد مرّت خمس سنوات أخرى على رحيله، ولم أنسَ إلى الآن لحظة فِراقه، خمس سنوات ولا زلت أُحاول تخطّي تجربة الفَقْدِ.

وتغير اتجاه دفة سفينتي مرة أُخرى، وكان عليّ أن أقوم بدورِ القُبطان هذه المرة، وأُدير الشركة التي وَرِثتُها وابنتي عن شريف، بل وأنفذ خُطة التطوير التي بدأها هو منذ سنوات، هذا ما تذكَّرته وأنا أقود سيارتي من بيت حازم وإسراء في مصر الجديدة إلى بيتي في التجمع حيث تنتظرني دولا ومربيتها.

فمنذ وفاة زوجي لم أستطع تلبية دعوة أمي المتكرِّرة بالعودة إلى بيت أبي أمام قصر البارون مرة أخرى، اكتفيت بالبقاء داخل بيتي وذكرياتي لفترةٍ كبيرة، لكني أجبرت حُزني المُقيم في قلبي على الرحيل أملًا في عدم الانغماس فيما لا يُفيد، فالأموات لا يعودون والحُزن لا يُفيد الأحياء، كل هذا من أجل مستقبل ابنتي الوحيدة "دولا"، والتي بلغت السابعة من عمرها الآن.

وأخيرًا، تعلّمت شيئًا ساعدني على مواصلة الحياة، هي أنني لا

أستطيع أن أتحكّم في القَدَر، لا أستطيع أن أتحكَّم فيما سيحدُث غدًا لأي أحدٍ مهما كان قريبًا، كل ما أملكه أن أستيقظ كل يوم وأحاول أن أحقِّق ولو جزءًا بسيطًا من أحلامي، هذه هي الحياة، أن أتقبَّل ما يحدُث خارج إرادتي وأعاود محاولاتي كل يوم بشغَفٍ.

والآن، ولسببٍ قدَريٍّ لا أفهمه أضطر أن أرى رامي من جديد، وأسمع اسمه يتردَّد في دائرتي الصغيرة، فها هو نزار يُشاركه مشروعه الجديد الخاص بالميتافيرس، بل يطلب مني تسويق المشروع، وها هي رنا إسحاق تستشيرني في أمرِ سفرِها مع زوجِها وأولادها وكيفية إعادة رامي لبيت أبيه! هل أنْسَتهم السنوات ما كان بيننا؟ هل تناسوا خِسَّته معي وهربه من كلِّ شيء؟ وإذا كانوا كذلك، لماذا لم أنسَ أنا؟

والآن، ولسببٍ قَدَريٍّ ثانٍ لا أعلمه، وجَدت نفسي أُغير اتجاه سيارتي بشكلٍ لا إرادي إلى بيت خالد الشافعي، أردت أن أتحدَّث معه، بمعنًى أدق أفضفض وأستشيره، لطالما اقتنعتُ بآراء خالد ورأيت فيها وجهة نظر مختلفة، هذا الرجل لم يَخذُلني أبدًا، لكن هل أنا حقًّا أتردَّد في قبول العمل مع رامي! لماذا لا أرفض ببساطة وحسب؟ هل لا زال بداخلي شعور الخذلان الذي انتابني منذ سنوات بعيدة؟ هل مرَّ الزمن علينا كما مرَّ على الناس؟

عندما أسمع نُباحَ كلاب كثيرة أعلم أنني وصَلت لعمارة خالد، ركَنت سيارتي ودخَلت العمارة وأنا أسُد أنفي؛ لأن رائحة الكلاب في الطابَق الأرضي لا تُطاق، صَعِدتُ للطابَق الثاني والأخير، وعند باب الشقة وجَدت خالد أمامي فاتحًا الباب يبتسم ويقول:

- كنت بعمل حاجات في البلكونة شُفتك بتركني.

دخَلت وأنا أتمتِمُ:

- عايزة أتكلّم معاك.

أغلق الباب وجلَسنا في غُرفة المعيشة بين صوت التلفزيون ونُباح الكلاب وسرد قصة متقطعة الأوصال، ومشاعر تخرج بغير قصدٍ منّي ومشاعر أخرى أكتشفها أثناء حديثي، كل هذا وخالد يُعدّ لنا كوبين من القهوة وينظُر إليّ في اهتمام ويستمع في شغَف.

بعد أن أنهيتُ ما لم أُرِد أن أقولَه لأحدٍ في يوم من الأيام، أردف خالد:

- ماريز.. عايزة تعرفي إنتي لسّه بتحبّي رامي ولّا لأ؟ إقبَلي تشتغلي معاه، أوّلًا: إفصِلي شغلك عن مشاعرك، واضح إن رامي في شُغله شاطر وده مشروع تِقيل، شِركتك هتستفيد منه، ثانيًا: هيكون اختبار حقيقي لمشاعرك.

أردفت بتوتر:

- كانت علاقة سامة.

نظر لي خالد في حُزن لمَحتُه في عينَيه وقال:

- كل العلاقات سامة لكن بدرجاتٍ.

شيء بداخلي استراح وأنا أقول بشرود:

- حقيقي، تعرف.. نزار بيقول هيبدءوا بقصر البارون.

ابتسم خالد:

- حلو ده.. إنتي أيام المدرسة كُنتي هاريانى حكايات عن القصر، هتلاقي نفسك هناك.

شعَرتُ بترددٍ حينها وأردفتُ شاردة:

- هفكَّر.

بعد قليلٍ ودعت خالد عند الباب، ربَّت على كتفي وكأنه يَدعَمني فيما سأُقرِّر، دائمًا يُريحني هذا الرجل، هبطت الدرَج والغريب أنني لم أشم رائحة الكلاب العفنة ولم أسمع نباحهم!

خالد الشافعي

أعتقد أن روح "بطرس باشا غالي" ستصب لعنتها علينا جميعًا إذا ما حضرت الآن، ورأت حال الشارع الذي سُمي باسمه في منطقة مصر الجديدة وتحديدًا روكسي، كان هذا الشارع من أعرق شوارع المدينة في الماضي، كان للشارع خصوصية نشأت مع تشابه شكل العمائر بالفيلات، ومع تدهور الأوضاع باع المُلاك العمائر لتُهدم ويُبنى مكانها أبراج شاهقة كعُلب كبريت مُتراصة، وسط كثير من الباعة والممرات والمحالِّ التجارية والعيادات ومعامل التحاليل ومراكز الأشعة؛ وبذلك أصبح الشارع وجهة يومية للزبائن والمرضى والعرائس وغيرهم من كل محافظات مصر، وأصبحت أسكن في بيت قديم عريق الطراز على الورق فقط، بيت شهد أجمل سنوات عمر عائلتي، وبتُّ أتذكر أطلال زمن لن يعود.

ورثت الشقة بعقد إيجار قديم بعد موت أبي ومن ورائه أمي، وهذا كل إرثي؛ شقة في عمارة مكونة من طابقين وأربع شقق، عمارة لها شكل جمالي متفرد، تُباهي عمارة أمامها تُشبهها في الشكل، مع فارق كبير في حالة المبنى، فقد اعتنى مُلاك البيت الآخر اعتناء كاملًا عبر به الزمان، في حين ماتت مالكة البيت الذي أقطن به وورثته أختها الوحيدة المُسنة، وقد أفلحت في إرغام مستأجرين لشقتين أن يرحلا من العمارة بمقابل ماديٍّ زهيدٍ ثم باعت الشقة الواحدة بملايين، فقد لجأت لحيلٍ قذرة جعلتهما يهربان من البيت، وهي تمارس حيلها معِي لكني تجاهلتها وبقيت في الشقة لثلاثة أسباب؛ الأول: أنني عنيدٌ لحدِّ الجنون مثلها وأكثر، والسبب الثاني والأهم:

أنني لا أمتلِك إلّا هذه الشقة الواسعة جدًّا التي تركها لي أهلي بعد رحيلهم، والتي لا أشغل إلا حيزًا بسيطًا من مساحتها لكنه مليء بالذكريات، والسبب الثالث: أنني لا أملك المال لأشتري شقة في مكان يحفظ لي مكانتي الاجتماعية.. أنا الدكتور خالد الشافعي، ابن الدكتور أحمد الشافعي.

نعم أحيانًا لا أملِك المالَ الكافي لإصلاح سيارتي التي تدور في شوارع القاهرة منذ أكثر من ثلاثة عشر عامًا، تخرّجت من كلية الطب بتقدير امتياز، كنث من أوائل الدفعة، والأميز بينهم بلا شك، حيث لفتُّ انتباه أساتذتي إليّ، حينها كانت سيارتي الوحيدة مكافأة كريمة من أبي دكتور أحمد الشافعي رحمه الله، كان من أمهر أطباء المخ والأعصاب، كان أبي أسطورة من أساطير الطب، شعرت بعد موته أن ظهري قد تكسّر وتحطّم، كان صديقًا مقربًا لأشهر أطباء نفس التخصص وهو الدكتور إسحاق النحاس، وكانت صداقتهما ولقاؤهما الأسبوعي بمثابة كنز من المعلومات الحديثة لي، ورغم صداقتهما القوية فإنّ التنافس بينهما كان أقوى، وسِرْت على دربهما بعد أن أسرني الانبهار بهذا التخصص، لكن بعد تخرجي بفترة قصيرة توفي والدي في سلاسة تامّة، دون مرض ودون ألمٍ، سيطرت الصدمة علينا جميعًا، وسافر أخي الوحيد والأكبر إلى ألمانيا في بَعثة، وحاول الدكتور إسحاق احتوائي بكل الطرق الممكنة، كان يبحث عن ابن وأنا أفتقد الأبَ، لقد تغير دكتور إسحاق كثيرًا بعد سفر رامي، شعَرت به مُنكسرًا بداخله، ثم جاء مرضه فأصبح أكثر لُطفًا ورحمة بمن حوله، وظن أنه أفلح في احتوائي، لكن بداخلي لم

يعوضني أحدًا عن فقدان أبي، حينذاك كانت أمي تعيش في دوامة من الحزن لم تَنتهِ إلا بوفاتها بعد موت أبي بسنتين فقط، وعاد أخي من ألمانيا للدفن والعزاء والوداع أيضًا؛ لأنني لم أراه بعدَها إلى الآن.

وبدأت أختبر الوحدة عن قُرب، أرافقها وأُمهلها أن تفصح عن قَصْدها بشكلٍ متحضِّر، ظلت فظة وقاسية كما كانت على مدار العصور؛ لذلك قررت أن أتجاهلها تجاهلًا تامًّا، وأنا بارع في التجاهل، ونجحت بشكل كبير وتأقلمت مع جنون مالِكة البيت التي جعلتني أهَب صديقي الوحيد وكلبي "سيزر" إلى أحد أصدقائي؛ ذلك لأنها أقسمت ذات مرة أنها ستسمّه إذا ما سمِعت صوت نُباحه ليلًا، لأنه أقلق منامَها، وبعد أن تأكدت من بيعه فإذا بها تشتري كلبين من نفس فصيلته الألمانية، وتحوَّلت شقة كاملة بحديقتها إلى ملجأ أو فُندق للكلاب، وجعلتني أعيش وسط نُباح أكثر من أربعين كلبًا كل يوم وليلة، ورائحة تَنِم عن انعدام كاملٍ للنظافة، ومع كل هذا الكيد منها لن أخرج من بيتي إلا ميتًا، فأنا أيضًا أُضايقها بطريقتي كلما سنَحت لي الفرصة بما لا يدعُ مجالًا لمقاضاتي، فأنا أهتم بقراءة القانون في العموم للعلم بحقوقي المدنية، فتارة أفتح باب الحديقة الخشبي الطويل فيهرب عدَد من الكلاب، وتارة أُساوي إطارات سيارتها بالأرض، وأفرَح كثيرًا عندما أسمَعها تعوي غاضبة، وسنرى مَن سينتصر أخيرًا، أنا أم هذه العجوز الشمطاء؟

ولأنني أعمل بدوامٍ شبه كامل بين المستشفى وبين مراعاة الدكتور إسحاق ، لا أجِد الراحة إلا في يوم الجمعة، ولكل هذه الأسباب وما يترتب عليها لا أجد الوقت الكافي لنفسي، لكني قد أجده أثناء إحدى

نوبات ضعفي في البلكون الواسع وسط كراكيب لا حصرَ لها، فأضبط نفسي أُدخن سيجارة بعد إقلاعي عن التدخين دام لثلاث سنوات؛ فالدخان رغم شرِّه يساعدني على التفكير أحيانًا.

لذلك ألجأ لحيلةٍ نفسية تُبعدني عنه فأتعمد التدخين في مكان مُحاصَر بالقذارة من كل اتجاه مثل البلكون، لكي لا يهزمني أثر الدخان في الغرفة، ولكي يرتبط في عقلي الباطن التدخين بالعشوائية، ولأنني لن أستطيع أن أقف في البلكون لدقائق وأقاوم رائحة الكلاب إلا بمساعدة دخان السيجارة.

في الآونة الأخيرة، أصبحت منغلقًا على نفسي أكثرَ من ذي قبل؛ أسافر وأخرج وأبدو كائنًا اجتماعيًا، لكني مُنغلق من الداخل، لا أحد يعلم عني شيئًا ، لا أدع أحدًا يخمّن عن حياتي شيئًا ، فأنا ظاهريًا أحافظ على مستوى اجتماعي معينٍ نشأت فيه ولا أستطيع الخروج منه، وهذا يستهلك كل موارد رزقي أولًا بأول؛ على المستوى العاطفي مُتخبطٌ ومُنكسر ومُذبذب، ووحيد رغم كل الفرص المحتملة حولي لتكوين أسرة أتمناها، وحيد رغم الحب الذي أراه في عيون أكثر من فتاةٍ حولي، حب أشعر بمصداقيته لكني لا أتفاعل معه، إذ كيف سأفكر في الزواج بهذا الحال؟ ومع كل ذلك أجد رغبة تُلح في عقلي بأن أبحث عن فتاة مميزة، بمواصفات لم أملِك الوقت لتحديدها بعدُ، ربما كانت بعض هذه المواصفات في ماريز، التي يختلج صدري بالكثير من المشاعر المتضاربة عند رؤيتها، هي تقول إنها تكره رامي، وأنا أعلم أنّه يسكنُها ويستقرُّ في قاع قلبها، عندما نتخلّى عن مشاعرنا لا نكترث عند رؤية حبيب سابقٍ، لا نكره

ولا نحب، يصبح هذا الحبيب مثل عابر طريق، فهل نكره أو نحب العابرين؟ ومع يقيني بذلك أشعر بانجذاب دائم عند رؤيتها، أعلم أنني مُختلٌّ عندما يتعلق الأمر بالعواطف لكنني أتقبَّل هذا الخلل ببساطة.

كُنت أفكر هذا الصباح في زيارة دكتور إسحاق لكنني متردد، فقد تذكرت أن رامي سيكون هناك، هذا الرجل لم أرَ في جحوده قط، كيف يترك أباه المُسن المريض في هذه الحالة لسنوات؟ كيف لا يأكله عقله من فرط القلق عليه؟ إن الآباء لا يعوّضون، خاصة وأن أباه قد فعَل الكثير لجني ثروة سيتركها له، سيعلم رامي الحقيقة عندما يفقد والده، سيفيق من غيبوبته الزائفة، فأنا قضيت سنوات كثيرة مع الدكتور إسحاق وأعلم كم هو شخص استثنائي وأب يتمنى لو يُصلح ما أفسده في الماضي.

رامي إسحاق

في طقس حار أمام قصر لا يزال تحت الإنشاء في وسط الصحراء، وقف جدي "محمد النحاس" وبدَا شابًّا صغيرًا مع رجل أبيض قصير له ملامح أوروبيّة صريحة وحادة، بدَا في أواخر الخمسينيات من عُمره؛ عيناه ضيقتان فوقهما حاجبان كثيفان، له شارب عملاق فوق لحية صغيرةٍ، يرتدي الرجل وجدي حُلّتين رماديتي اللون، فوقهما قبعتان تحكمان رأسيهما تحت حرارة الشمس القوية، ترجع موضة أزيائهما إلى الطبقة الأرستقراطية في أوائل القرن العشرين.

تابعا باهتمام رجلًا أرستقراطيًّا آخر يرتدي حُلة فخمة وقبعة مثلهما، ملامحه تؤكد فرنسية نشأته، كانا يدعونه "مسيو مارسيل"، كان يقف وسط عمال بناء يبدو عليهم الكَدح والمَشقة ويُمسك بأوراق كبيرة يُدقِّق النظر فيها، بدت لي كأنها أوراق هندسية، وأخذ يعطي الكثير من الأوامر للعمال، ثم تركهم وذهب إلى حيث يقف جدي والرجل الأوروبي فوقف معهما، وسمعته يناديهما "مسيو إمبان" و"مسيو نحاس"، كان إمبان يُعامل جدي بلُطف وكأنه ابنه، أطلعهما مارسيل على أوراقه الهندسية وهو يُشير مرات ومرات إلى اتجاهات مُختلفة من القصر الذي يبدو أنه سيكون عظيم المعمار.

بعد بُرهة قصيرة اختفت أشعة الشمس وحلّ الغيام فجأة، وهنا نظرتُ إلى الأرض فوجدت حذائي الجلدي الأسود مُغطّى بالرمال، تلفّت حولي فوجدتني اقتربت منهم فجأة رغمًا عني، اقتربت أكثر ومسيو إمبان يُشعل سيجارًا ورأيت جدي يقول مُنبهرًا:

- تماثيل لحيوانات خرافية وتمثال بوذا يحرس المكان من الأرواح الشِّريرة على واجهة القصر! ده شيء مُذهل عمري ما سمعت عنه!

عندها رأيت أمي تظهر من العدم ترتدي ملابس بالية وقد غطّاها التراب، اقتربت منِّي ونهرتني بشدة..

- رامي.. قولتلك كام مرة قبل ما تنزل من البيت تستأذن؟

فزعت من هيئتها وبكيت؛ لأنني لم أرَها هكذا أبدًا، كانت أمي دائمًا سيدة جميلة أنيقة أشتَمُّ رائحة عطرها عن بُعد، حينها انتبهت أنني كُنت أحلُم، أو بمعنًى أدقّ أهذِي، وسمعت صوت دكتور إسحاق عاليًا مُبتهجًا لأول مرة:

- القهوة يا صباح.

جلست على السرير وأنا أمسح وجهي بكفي مرارًا لأدرك ما يحدُث، حينها تذكَّرت حماقتي بقبولي إلحاح رنا لأعود لبيت العائلة لحين رجوعها من السفر مع عائلتها، نعم هذه حماقة وسأكون مُجبرًا على التعامل مع عواقبها كل يوم، كان يكفي أن أعِدها بأنني سأمرُّ عليه يومين في الأسبوع، والآن عليّ أن أتعامل مع الموقف الحالي، وتذكّرت لحظة دخولي ووقوفي أمام باب الشقة البارحة، مشاعر كثيرة اختلطت ببعضها البعض، تمتزج وتضغط على أعصابي ثم تتبخَّر حولي.

قبل عشرين عامًا كنتُ أرى هذه الشقة واسعة، لماذا أراها أضيق؟ وأرى أمّي في ذاكرتي بعد أن أتجاوز ممرّ مدخل الشقة تجلس على اليسار على كرسي ضخمٍ قديم بجانبه كرسي مماثل له، بينهما

منضدة صغيرة عليها تليفون أرضي رمادي اللون، تُدير أمي قرص التليفون فأسمع رنة بداخله وأسمعها تقول "بونجور يا مُشيرة إيه الكسل ده.. لسه نايمة؟"، تراني فتبتسم وتُرسل قُبلة عبرَ الهواء، أتجاوزها وقلبِي يرفرف وأنا أرى شقتنا، هذه غرفة الاستقبال هادئة الألوان، وهي الشيء الوحيد المودرن في البيت وكانت أمي من ألحَّ لِشرائِه، ثم الصالون القديم الذي كان يخاف الدكتور إسحاق من مجرد الجلوس عليه خشية أن يتهالك، المرآتان العتيقتان الطويلتان في منتصف الصالون، تتوسطهما صورة السيدة العذراء تحمل وليدها "السيد المسيح" وآية الكرسي بجانبها مباشرة، بين هاتين اللوحتين صورة قديمة مرسومة لسيدة أرستقراطية من القرن التاسع عشر، سيدة مجهولة ورسّام مجهول أيضًا، سيدة جميلة تجلس متجهة بجسدها جانبًا وتلتفت مبتسمة على طريقة الموناليزا، تبدو للوهلة الأولى كملاكٍ، لكن في كل مرة كنتُ أدقِّق النظر فيها أجدها شيطانًا، إنه رسم كاد أن ينطِقَ، أخافني في صِغرى حتى إنني كنتُ أخاف دخول الصالون وحيدًا ليلًا، تحت هذه الصور وحدة أدراج خشبية عتيقة، عليها شمعدان أمي الفِضي الذي أهداه لها كاهن "كنيسة البازيليك" قديمًا، وبه نفس الشموع الحمراء لم تتغير، كان الدكتور إسحاق يضع بوحدة الأدراج كل الأشياء القديمة التي ورثها عن جدي، ثم يُغلقها بمفتاح ويتركه فيها! لماذا يُغلقها بالمفتاح من الأساس إذا كان سيدعنا نفتحها ونرى ما فيها؟ أتذكّر أنني فتحتها يومًا ورأيت لفائف ورقية قديمة لم أفهمها وصورًا قديمة للبارون إمبان مع جدي في القصر، كان هذا مصدر فخر كبير للدكتور إسحاق .

كان بيتنا لسنوات كثيرة محل تعجُّب من أصدقائي وأصدقاء رنا، "انتوا مسيحيين ولا مسلمين؟"، جملة اعتدناها وحفظنا ردها، بعد الصالون أرى البلكون الواسع، وبه كراسي من البامبو تلتف حول منضدة مستديرة، فوقها على الحائط بيت الببغاء العجوز الذي لا يكفُّ عن ترديد اسم أمي "كلير.. كلير" في أوقات مختلفة، ولا يعي أنه يخلع قلبي بفعله هذا، أخرج بعقلي من كل هذا فأرى في أول الطرقة الطويلة مطبخًا كبيرًا ثم خمس غرف كبيرة تتوزع في الطرقة بحِرَفية مهندس معماري موهوب، أوَّلها بعد المطبخ غرفة السفرة، كما تركتها وكأنها مُتحفٌ يكفي لاثني عشر شخصًا وأكثر، ثم غرفة دكتور إسحاق وأمي، لم أجرؤ على التفكير في دخولها، يكفيني أنني أشتم رائحة أمي في البيت منذ اللحظة الأولى فيه، حتى هُيئ لي أنني أسمع ماكينة الخياطة الخاصة بها تعمل! صرفت عقلي إلى الغرف فرأيت غرفة رنا التي علمت أنها أصبحت غرفة صباح فيما بعد، ثم غرفتي التي تحمَّلت معي الكثير، واندهشت أكثر عندما رأيت صندوقًا يحتوي على ألعاب الطفولة وأغراض أخرى استخدمتها إلى أن سافرت! لا بد أن أمي مَن احتفظت بها حتى ماتت. ثم أرى الغرفة الخامسة والأخيرة هي مكتب الدكتور إسحاق ، والمحاط بكثير من التعليمات والغموض منذ أيام طفولتي خاصة أن بها خزنة قديمة، ذكريات تتداخل مع بعضها البعض، تتصارع بقوة وتجرحني لكنها لا تموت.

صوت طرقات خفيفة على الباب ثم يأتيني صوت صباح:

- الفطار جاهز يا باشمهندس.

كبرت صباح وأصبحت شابة، عندما رأيتها تذكّرت أنني كبرت أيضًا، كُنت أردِّد في الماضي "هذا رجل كبير بلغ أربعين سنة!"، ابتسمت بسخرية وقد علَت نبرة صوتي:

- هاتيلي القهوة هنا يا صباح لو سمحتي.

بعد قليل طرَقت صباح الباب طَرْقة خفيفة ودخَلت تحمل صِينية وعليها فنجانَ القهوة فأخذته منها شاكرًا، ابتسمت لي وكأن صدرَها يضيقُ بشيءٍ، سألتها وأنا أنظُر في عينيها:

- عايزة تقولي حاجة؟

أغلقت باب الغرفة وقالت في استعطاف:

- دكتور إسحاق كان مستنيك بره على الفِطار.. أنا بعد إذنك يعني قولتله إنك هتشرب القهوة في أوضتك وهتطلع تفطَر معاه.

لم أشعُر بنفسي وأنا أضعُ فنجان القهوة على الكوميدينو بعصبيةٍ وأزفر في ضيقٍ، أردفت بسرعة:

- أنا آسفة، أنا مش بتدخَّل في حياتكم، بس أنا بعتِبِر نفسي واحدة من العيلة دي، اتربيت هنا ومليش غيركم، لو ليّا خاطِر عندك تطلع له؛ لأنه فرحان جدًّا من امبارح، اجبُر بخاطره.

يبدو أن صباح نجَحت إلى حدٍّ لا بأس به معي، نظرتُ إليها وقد شعرت بإخلاصها وقلت:

- أنا هعمل كده المرة دي، بعد كده مش هتعرفي تدبسيني.

تهلَّل وجهُها فرحًا، ثم تذكَّرت مهمتي بالأساس من أجل مُتابعة حالة دكتور إسحاق فسألتها:

- هو دكتور خالد جاي النهارده؟

لمعت عيناها واحمرّت وجنتاها فجأة، أعلم هذه النظرات الغبية جيدًا، إنها تحبُّه، لكنه يُريد ماريز، لقد رأيت كيف ينظُر إليها في الساحل، أفاقتني نبرة صوتها التي تغيرت وهي تقول:

- هييجي النهارده.

نظرتُ إليها في شفقةٍ وذهبت إلى الحمام لأستعدَّ، اليوم أول أيام التصوير في مشروعي الجديد، سيكون قصر البارون أول يوم عمل لنا، كم أنا مُتحمسّ لكل شيء؛ العمل مع أصدقاء الطفولة في مشروع حياتي، في مجال التكنولوجيا الذي أهدرتُ فيه عمرًا كاملًا، والأهم أن ماريز قبِلت التسويق للمشروع، هذا يعني أنني سأراها، سأتحدَّث معها، ربما يأتي يوم أتجرأ وأعتذر لها.

بعد أن استعددت لليوم، ذهبت على استحياء إلى حيث يجلس أبي على كُرسيِّه المتحرِّك في البلكون يحتسي القهوةَ ويتأمل القصرَ كعادته، جلست بجانبه دون أن أنظُر إليه، ولمَحته ينظر باتجاهي بطرف عينيه، كما لمَحت ابتسامة خفية على طرف شفتيه يحاول أن يُسيطر عليها، كانت أمي تُردد أنه ندِم على كل شيء وكنتُ أردِّد "ندم بعد فوات الأوان"، التقطت قِطعة من الخبز ودهَنتها بقطعة من الزبد والمربَّى أمامي وبدأت آكل في صمتٍ، كسَرت صباح صمتنا المتبادل وقالت وهي تعطي لأبي الدواء:

- مصر نورت يا باشمهندس والله.

- إيه حكاية باشمهندس اللي طالعالي فيها دي؟ ما تقولي يا رامي عادي، ما احنا اتربينا سوا؟

- آه بس متنساش انت أكبر مني.

ضحكنا ونَسيتُ مشاعري السلبية نحو دكتور إسحاق حينها؛ رن جرس الباب حينها وذهبت صباح لتفتحه وتركتنا بمفردنا، ظنًّا منها أننا سنتعاتب، نظر لي في حنانٍ مُصطنع وابتسم قائلًا:

- عرفت من حازم أنكم هتصوروا النهارده في البارون، برافو جِبتوا التصاريح بسرعة.

- إسراء صاحبة بترا مديرة القصر وبترا علاقاتها كويسة في وزارة السياحة.

أردف بتردد:

- رامي، خلوا بالكم من بعض هناك.

ابتسمت بسُخرية وقبل أن أُجيبه دخل خالد الشافعي مزهوًّا بنفسه، وصباح تُحيطه بنظرات غرامٍ مراهقة، ألقَى تحيته وذهبت صباح لتعدَّ له حقنة مركبة ضمن بروتوكول العلاج، جلس دون إذن وقال:

- يخلُّوا بالهم من بعض ليه يا أُونكل؟

كان هذا كافيًا لأمقته أكثرَ، كيف يتدخَّل في ما لا يَعنِيه! فقلتُ

بنبرة جادة:

- الكلام موجَّه للناس اللي رايحة القصر.

استشعر دكتور إسحاق الحرج فقال سريعًا:

- خالد مش غريب، كنا بنتكلم عن البارون، هيصوروا فيه النهارده من ضمن مشروع تكنولوجي سياحي ثقافي كبير عن الميتافيرس بيعمله رامي.

كان يتحدَّث بفخر عنِّي لم أسمعه طِيلة حياتي، لكنني شعَرت باستياء؛ لأنه يُعطي خالد أكبر من حجمه، دخلت صباح تحمل القهوة فالتقط خالد دون أن يَشكُرها وقال:

- القصر ده أسطورة، وراه ألغاز متحلتش، على فكرة أنا مصدّق في كل حاجة عجيبة اتقالت عن القصر، أنا كنت مهتم جدًّا أعرف هو صَحِيح اللي بيتقال عليه ولّا لأ؟! قرأت كتير لكن موصلتش لحاجة مؤكدة.

أجبته وكأنني أنهي الحديثَ كله:

- ولَا هتوصَل.

ابتسم خالد وهو يقرب فنجان القهوة إلى شفتيه وقال:

- مش مهم أوصل المهم أفهم.

أخذ رشفة من قهوته على مهلٍ وعيناه تلمعان وكأنه امرأة تَكيدُ منافستها، فنظَر إلينا دكتور إسحاق بتعجُّبٍ في حين وضَعت طبقي

على المنضدة وأنا أتفقَّد ساعة يدي ونظرت باتجاه دكتور إسحاق:

- مضطر أنزل.. لازم أكون أول واحد في الموقع.. زمان "بترا" مستنيانا.

قاطعني خالد، وهو يلوك قطعة خبز في فمه ببرود:

- بترا صادق.. يااااه.

- تعرفها؟

ابتسم خالد بمنتهى الحماقة وعيناه الخبيثتان تتحدثان قبل لسانه:

- كانت دُفعتي في المدرسة، مش هتفتكرها؛ لأنها أصغر منك بخمس سنين.

اصطنعت عدم اهتمامي لمقصده ولَمَحته بطرف عيني يبتسم لدكتور إسحاق مُصطنعًا البراءة، وتعجَّبت لما رأيت عين دكتور إسحاق لم تفارقني بحنوٍ حتى غادرتُ المكان!

بِترا صادق

جلست إسراء أمامي في كامل زينتها، تضع ساقًا على ساقٍ وتضغط على زرٍّ "السيجارة الإلكترونية"، سحبت نفسًا خفيفًا ثم أخذت تهز ساقها العليا في حركات منتظمة، هذا الذي تُدخنه له رائحة نتنة لكنني سأتحملها كاستثناء من أجل أن أرى رامي، لسنوات لم أرَه إلا عبر صور جافة على السوشيال ميديا، الجميل في الأمر أنه لم يتزوج، هل لا زال يحب ماريز؟ لا أظن أن قلب الرجل يمتلك هذه الذاكرة العظيمة، بدلت إسراء ساقيها ولم تتخلَّ عن تلك الحركة العصبية وقالت وهي تتفقد أحد الإشعارات في ساعة يدها:

- رامي وصل.. حلو قوي، أصل أنا عملتلهم جروب إمبارح باليل علشان يبقى أسهل في التواصل.

ابتهج قلبي وطرق الباب طرقتين ودخلت إحدى عاملات البوفيه تحمل كوبين من النسكافيه، صرير الباب يجعل أسناني تصطك ببعضها، أوصيت بإصلاحه كثيرًا لكنه يعود لصوته بعد كل مرة، رأيت حازم في الطرقة التي بها مكتبي، وهو أوسع غرفة في "البدروم"، كان هذا البدروم في الماضي غرفًا للخدم ومطابخ وحمامات، وأصبح في زمننا هذا مكاتب إدارية. خرجت عاملة البوفيه وإسراء تتحدَّث في الهاتف بصوت عالٍ:

- إنت فين يابني، كُلنا هنا! إيه يعني الميعاد بدري؟ وهي كارول بتعمل إيه ما تخليها تصحيك؟

نظرت عبر شاشة مراقبة الكاميرات الصغيرة على مكتبي، أفراد

الأمن يجلسون في هدوء، اليوم إجازة رسمية؛ لذلك اخترته يومًا للتصوير بعيدًا عن الجمهور، أردفت إسراء وهي تضحك:

- طيب ياللا مستنيينك، بترا سايبلكم خبر على البوابة تدخلوا مكتبها على طول علشان نلحق اليوم من أوِّله.

لم أتردد عندما أخبرتني إسراء بمشروع سيستغرق تصويره يومًا واحدًا سيروج لزيارة القصر، لكني لم أتوقع أن تحضُر معهم التصويرا بل توقَّعت أن تحضر ماريز لتصنع من كواليس التصوير مادة جيدة تشوِّق بها وسائل التواصل الاجتماعي كنوع من الدعاية، ولكنني كامرأة أتفهم هذا النوع من المشاعر، فمَن منَّا تريد أن ترَى حبيبها السابق وتعمل معه؟ لكني لم أفهم دور إسراء الحقيقي هنا، هل هي شريكة أساسية؟ وهل حازم يثقُ بها إلى هذا الحدِّ أم أنها تفرض سيطرتها عليه؟ فهي شخصية مسيطرة منذ أيام الدراسة، أين طليقي البائس ليرى كيف يُعامل الرِّجال النساء؟ أحمد الله -كلما تذكرته- أنني لم أنجب منه، فأنا لا زلت في الخامسة والثلاثين وبإمكاني الإنجاب من رجل يختاره عقلي وقلبي معًا، هل يمكن أن يكون هذا الرجل هو رامي إسحاق؟ دقت إسراء السيجارة الإلكترونية دقتين على منفضة السجائر لتُفرغ ما بها من تبغ وقالت:

- صحيح.. شافعي بيسلم عليكي كتير.

- شافعي ده بكاش ولا بيسأل.

- بكاش ومشعوذ غالبًا، الحمد لله إنه مقالش آجي معاكم.

- اشمعنى.

- حازم بيقول: إنه مهتم بتاريخ القصر وبأي حاجة ملهاش تفسير، مش عارفة بيلاقي وقت إزاي؟!

ضحكت بسخرية وأردفت:

- عمومًا القصر مكان عادي جدًّا، هي الإشاعات مسابتوش لحد دلوقتي من أواخر التسعينيات!

- من قبل التسعينيات.. خُزعبلات يا بنتي.

طرق الباب مُجددًا ودخل حازم ومعه اثنان ميَّزت منهما نزار خياط على الفور لأنني أراه دومًا في الساحل مع حازم وإسراء، ها هو رامي إسحاق أخيرًا، يا إلهي.. لم يتغيَّر، أعتقد أنه باتَ أكثر وسامة وجاذبية، مدَّ يدَه وكأنه فارس من زمنٍ قديم وشعَرت أنه يحتضِن يدِي:

- بترا.. مبسوط إني شوفتك.

- الحمد لله على سلامتك، أخيرًا هتستقر.

ترك يدي بوداعةٍ، وقال وكله أمل:

- يا رب الدنيا تمشي زي ما أنا عايز؟

- إن شاء الله تمشي أحسن.

وبعد مُحادثة قصيرة مضوا بعدها تعهدًا بالحِفاظ على المبنى بالخارج والداخل، وقف حازم في فضولٍ وهو ينظر إلى الغرفةِ باهتمام ثم فتح باب المكتب وألقَى نظرة أُخرى في الطُّرقة ودخل

تاركًا الباب مفتوحًا:

- الأوضة دي كانت إيه؟

أجبته على الفور:

- كانت مطبخًا.

عينا حازم تنفجران بالحماس وكأنه يريد أن يميز الحقيقة من الخيال فبدأ يسأل:

- صحيح.. البرج اللي فوق ده كان...

قاطعته:

- ما كانش بيلف.

بهتت ملامحه.

- غريبة! طيب والأصوات والحاجات الغريبة اللي كانت بتحصل في القصر؟

رسمت ابتسامة أجدتها منذ استلمت العمل هنا وأجبته في ثبات:

- برضه إحنا هنصدق الخرافات دي يا حازم؟ لما تخلّصوا هاخُدكم جولة في القصر.

انطفأت لمعة عينيه قليلًا وقال:

- معتقدش هنلحق نخلّص النهارده، يعني.. يومين تلاتة بالكتير.

نظرتُ إلى إسراء في لومٍ لكنها تجاهلتني، وقبل أن أتفوّه بكلمةٍ

أُغلِق باب المكتب من تِلقاء نفسه بعنفٍ! أدركت أنه ربما أحدٌ يزجرني، نظر الجميع نحوي ثم إلى جُدران الغرفة في ريبٍ، قامت إسراء ببطء نحو الباب وفتحته فأصدر صريرَه المُعتاد ثم نظرت في الطُّرقة بسرعة وقالت في تعجب:

- مفيش تيار هوا خالص.. وبعدين الباب تِقيل أصلًا!

قال رامي بسخرية:

- آهٍ.. هنبتدي! طيب يا جماعة نلحق نصوَّر قبل ما العفاريت يزعلوا منِّنا..

أصابتني هذه الجملة بالتوتر لشدة سخريته من الأمر، وبعد بُرهة صغيرة غادر الجميع مكتبي، كان طاقَم العمل مع حازم ونزار ورامي قليلًا للغاية كما وعدتْ إسراء، فقط مساعد لحازم ومساعد لنزار ورامي بمفرده، أخبرتني إسراء أنها ربما ستتجوَّل بمفردها في القصر إذا ما شعرت بالملل فوافقت على مضضٍ، ذهبوا جميعًا لتصوير القصر من الخارج وبقيت أنا في مكتبي في هدوء عجيب سيطر على القصر، أغلقت باب المكتب وبقيتُ أراقبُ كاميرات المراقبة كعادتي اليومية، الأمور اليوم هادئة، راجعت جدولَ الأسبوع على اللاب توب من ندوات ثقافية، وحفلات تكريم، ومعارض الفنون التشكيلية وغيرها من الأنشطة التي أدخلتها على القصر في الآونة الأخيرة بعد تجديده.

وفجأة سمِعت أصواتًا مُتفرقة لطاقَم العمل وضحكاتهم وموسيقى أوركسترا! لكن الطُّرقة خالية في كاميرات المراقبة! توقَّفت عن

العمل وبسرعة خرجت من مكتبي إلى الطُّرقة وتجوّلت فيها فرأيت عاملة البوفيه تتحدّث في هاتفها المحمول خارج الطرقة لاستحالة إيجاد شبكة اتصالات داخل البدروم، شعَرَت بوجودي خلفها فتلفَّتت وقالت:

- الجماعة تقريبًا خلّصوا تصوير برّه ولسّه داخلين الدور الأرضي.

- محدش جِه هنا؟

- لأ.

- طيب إعمليلي قهوة.

مشيت ببطء عائدة إلى مكتبي، دخلت وجلست على الكرسي ووجدت الهدوء يُخيم فلا أصوات ولا ضحكات ولا موسيقى، بعد قليلٍ أتت عاملة البوفيه بفنجانِ القهوة وأنا أراجع جدول الأسبوع بدون وعي كاملٍ، وما إن أغلقت عاملة البوفيه الباب حتى سمِعتُ أصوات طاقَم العمل واضحة في أذني! قال حازم لإسراء:

- هو شافعي فعلًا قال: سلّمولي على بترا؟

قالت إسراء:

- لأ طبعًا هو شافعي هيفتكر مين ولّا مين؟ أنا بس بحسّ إن عينها مِنُّه، فبحبّ أتأكّد من إحساسي، أصل بيبان في العين.. العين متكدبش.

قال حازم:

- إنتي مااااالك، تِحبُّه ولا متحبوش نُحشر نفسنا ليه؟!

قال رامي بسخرية:

- قالي أنا أسلِّمله عليها فعلًا، والله يا جماعة إنتوا مِدِّيينُه أكبر من حجمه.

شعَرَت وقتها ببصيلات شعر رأسي وجِسمي تقِفُ، اضطربت أنفاسي في التوِّ واللحظة، كيف أسمعهم بهذا الوضوح ونحنُ في مبنيين مُختلفين وبعيدين عن بعضهما! أمسكتُ هاتفي واتصلت بإسراء فسمِعت رنة هاتفها في الطُّرقة! ثم دقَّ الباب مرَّتين ودخلت إسراء تحمِل شطائر اللحم التي أُحبُّها مع مشروب مياهٍ غازية وهي تقول:

- كلمتك كتير تليفونك مُغلق وبعتنا جبنا أكل، فانا عارفة إنتي بتحبي إيه بقَى جبتلك.. ماشي؟

قلت بذهول:

- أنا كنت لسه بكلِّمك.. تليفونك رن؟

نظرت إلى هاتفها وهي تهز رأسها نفيًا:

- لأ.. مفيش مكالمات جَت خالص، الشبكة هنا وحشة قوي.

غلبت الدهشة على وجهي فقالت إسراء:

- إنتي كويسة؟

هززت رأسي بنعم وابتسامة باهتة وقد علمت أن القصر قد بدأ

اللُّعبة، هل ما سمعته بينهم صحيح أم أن القصر يُوقِع بيننا؟

خرجت إسراء وأغلقت الباب، لكني لم أسمع شيئًا بعدها، فقط صُراخ عاملة البوفيه التي جعلتني أنتفض وأخرج إليها بسرعة فوجدتها في أحد أركان الطرقة منكمشة ويبدو عليها الفزع، هرعت إليها فكانت تُشير إلى آخر الطُّرقة ودموعها تسيلُ، نظرت إلى حيث تشير فوجدت رجلًا أسود اللون يرتدي جلبابًا أبيض وفي خصره حزام أحمر داكن وغطاء رأس أبيض اللون، إنه زي "سفرجي"، اتَّجه الرجل يحمل بيده صينية إلى مكتبي ودخَله! أصابني الفزَع وتَجمَّدَت أطرافي، لم أستطع أن أهدِّئ من رُوعها فقلت:

- قومي روَّحي.. وإياكي حد يعرف اللي شوفناه دلوقتي، هنترفد كُلنا فاهمة!

هزت رأسها وفي ثوانٍ قامت تجري خارج المبنى دون أن تأخذ حقيبتها! ناديتُها وطمأنتُها أنني سأنتظرها حتى تأخذ حقيبتها، دخلت الفتاة إلى غُرفة البوفيه الصغيرة لكنها بعد ثوانٍ صرخت صرخة عظيمة ثم خرجت تمشي شاردة بخطوات بطيئة نحو الباب! لا أريد أن يصلَ لرامي شيء كهذا لكي يُكمل تصويرَه، الأصعب أنني لا أستطيع أن أسْردَ ما يحدُث في القصر كلَّ يوم، أو ما أراه ليلًا كُلما تعثَّر حظي واضطررت للعمل في وقتٍ متأخرٍ، لكن هل بدأت الأمور تخرج عن السيطرة قليلًا؟

يبدو أن فكرة التصوير أثارت غضب ساكني القصر، هرعت إلى مكتبي أتفحَّص الكاميرات الخاصة بالطرقة، لم يظهر أحد غيري أنا

وعاملة البوفيه فقط! رغم رؤيتي للسفرجي! كما أن البوابة هادئة كما كانت في أول اليوم، عجيب أمر هذا القصر! مراجعة الكاميرات تؤكِّد دومًا أن القصر هادئ تمامًا! وأنا لا أستطيع أن أروِي ما رأيته بعيني حفاظًا على سُمعة القصر ووظيفتي! ماذا أفعل الآن؟ سأتصل بإسراء لأتعجَّلهم بحجة أنني أريد العودة للبيت لأمر طارئ، لم يكن الاتصال سهلًا، لا بد أن أذهب إليهم بنفسي، وأتمنى ألَّا يُلاحظوا شيئًا، منذ يومي الأول بالقصر وأنا أجتهد كثيرًا لأُخفي الكثير، الغريب أن نزار ظلَّ ينظر إليَّ نظرات أخافتني ولا أجد لها تفسيرًا!

وشعرت أنني أسيرة هنا في قصر البارون إمبان!

نزار خياط

اليوم بداية تنفيذ المشروع، وأول يوم تصوير لأثرٍ من أكثر الأماكن إثارة بالنسبة لي، أثر نشأت وعشت أمامه، "قصر البارون إمبان"، عندما دخلت من بابه الرئيسي ولم تكن المرة الأولى، إنتابني شعور مختلف، وكأن هناك من ينتظرني! أعلم أن هذا من وحي خيالي، ربما تأثير أساطير الطفولة، بعد أن تجاوزت الحديقة وتجاوزت تمثال "داود المنتصر" صَعِدت بضع درجات لأتجاوز تمثال "نارسيس"، قابلني تمثالا المدخل المتطابقان لكي أعبُرَ ثلاث بوابات خشبية أدخل من خلالها الطابق الأرضي، ومع أول خطوة في البهو الرئيسي، وجدتني أقف من جديدٍ أمام جمال القصر متناسيًا كل ما قيل عنه، فهو مصمّم على الطراز الهندي، كُسيت أرضيته وجُدرانه بالرخام الإيطالي الفخم، وزُينت القاعة بعدد من التماثيل أبرزهما أربعة لبوذا تعتلي تِيجان الأعمدة التي تكتنِفُ بابي قاعتي الصالون والطعام، بينما يعلو البابين لوحتان للإله كريشنا عازف الناي وهو واحد من أهم آلهة الهندوس.

دخلت قاعة الصالون على اليسار التي صُمّمت أرضياتها من خشب الباركيه بينما كُسيت جدرانه بالخشب المستورد، ويحتوي على عدد من البانوهات التي تتوسطها مرايا جُلِبت خصيصًا من بلجيكا لتوضع بالقصر، وتشتهر الغرفة بمدفأة كبيرة من الرخام الإيطالي وتعلوها أيضًا مرآة.

خرجت من الصالون إلى قاعة الطعام على اليمين والتي تتشابه

مع قاعة الصالون في التصميم لكنها لا تحتوي على مدفأة، ويوجد بالقاعة بابان أحدهما يؤدي إلى حجرة صغيرة كانت مكتبًا للبارون، بينما الباب الآخر إلى بُرج القصر الذي يشغله السُلم الصاعد إلى الأدوار العُليا.

هذه الفخامة نادرة ومميزة، بدت الأمور على ما يُرام في بهو قصر البارون حتى رن هاتفي وسمعت صوت بترا خائفًا، ربما مرتعشًا بعض الشيء لا أدري، سمِعتُها تصرخ صراخًا عظيمًا، لحِقه صوت ارتطام وانقطع الخط!

نظرت في دهشةٍ وهم يتحدَّثون عن الكادرات وتفاصيل التصوير، لمَحَني رامي فاقترب مني وقال:

- مالكَ؟!

نظرتُ إليه مُندهشًا وقلتُ بصوت مذعور لم أسيطر عليه:

- تقريبًا بترا وقَعت من مكانٍ عالٍ!

توقَّف الجميع عن الكلام ونظروا باتجاهي وتوتَّرت إسراء وصاحت:

- بترا مالها؟ أنا لسّه كنت عندها من شوية!

أجبتُها مأخوذًا وأنا أنظُر إلى اسمها في هاتفي:

- كانت بتصرخ ملحقتش أفهم حاجة، بس صوت الصرخة جِه بعده صوت حاجة قوية بتترمي على الأرض كأنها إترمت من فوق! صرخة طويلة! كأن حد بيسمَّعني صوت وقوعها! مش عارف صرخت وهي بتقع؟ ولا صوتت الأول!

جحظت عينا إسراء ولطمت وجنتيها بعفويةٍ وقالت:

- يا نهار إسود.. ياللا نروح نُشوفها بسرعة.

وعندها دخلت بترا من الباب الرئيسي ونحنُ في حالة ثباتٍ لا نُحسد عليها! الأمر الغريب أنها بدت مُجهَدة أكثر من ساعة مضت! ثم سألت ببساطة.

- قدامنا كتير يا جماعة؟ أصل ماما تِعبت ولازم أروح ومِش هقدر أسيب القصر لوحده.

كانت نظرات الذهول والتشتُّت هي الغالبة علينا جميعًا، ورأيت رامي وحازم وإسراء ينظرون إليّ بشفقةٍ، اقتربت منها ببطء وكأنني أتأكد أنها على قيدِ الحياة وقلت:

- بترا.. إنتي لسّه مكلّماني دلوقتي حالًا وكنتي بتُصرخي!

نظرت إليّ بذهولٍ ثم نظرت إليهم وابتسمت وقالت:

- أنا فعلًا حاولت أكلّمكم كلكم لكن الشبكة واقعة، بس أنا هصرخ ليه؟

- زي ما تكوني وقعتي من مكان عالي.. معرفش أنا سمعت كِده.

نظرَت إليّ بتشاؤمٍ وقالت:

- أنا واقفة قُدامك أهو.. يا ساتر إيه الفال ده يا نزار؟

- يعني إنتي مكلمتنيش؟!

نظرت بترا إلى هاتفي مُرتبكة وقالت:

- إتأكد مِين اللي كلِّمك يمكن حد تاني وانت مشفتش الاسم كويس!

تفقَّدت الهاتف فلم أجد رقمَها في المُكالمات! وعندها تراءت لي ألوان الطيف من حولي تتراقص، وغلب الأحمر والبرتقالي على كل شيء تقريبًا! اقترب رامي مني وهمس في أذني بحدَّة:

- يخربيتك إنت واخد ايه؟!

نظرت له نافيًا ظنّه، التفَت رامي إلى بترا وقال:

- حقِّك عليّا أنا يا بترا بجد.. بصي إحنا بنحاول ننجز، الموضوع بس إن تفاصيل القصر بانت بعد الترميم وانتي عارفة ده مُهم، كل تفصيلة هنا وراها حكاية، فهو فعلًا صعب نصور كل ده في يوم يبقَى بنظلمه، أنا عارف إني بتعبك معانا، بس صدقيني ده لمصلحتنا كلنا وبكرة تشكريني.

نظرت بترا إلى رامي وقد هدأت قليلًا وبدت كأنها تفكِّر ثُم قالت بنبرة مختلفة:

- إنت عارف إني عايزة أساعدك.. إوعدني تحاولوا على قد ما تقدروا تِنجِزوا..

وعدها رامي وخرجت معها إسراء إلى حديقة القصر الأمامية تتحدَّثان.

طلبت من مساعدي أن يُغادرَ؛ لأنني سأغادر أيضًا، لم أشعُر أنني

بخيرٍ ولم أُحبِّذ أبدًا فِكرة الهذيان أمام مساعدي في العمل، هل يجوز أن ما تخيلته هو مجرد آثار جانبية لما كُنت أتعاطاه؟! أو تعاطَيتُه.. ربما؟!

كان مساعد حازم آخر مَن أنهَى وجبته وأخذ يُلمِّع عدسات نظارته الطبية، جلست على كرسي على مقربة منهم، بينما يتناقش رامي مع حازم حول إبراز بعض التفاصيل للقصر، وينظر إليّ نظرات يملؤها الشك، بدأ حازم التصوير هذه المرة بنفسه، وبعدَ قليل دخلت إسراء بهو القصر ولم تدرِ أنَّها في الكادر، أوقَف حازم التصوير هذه المرة بعصبيةٍ وصاحَ:

- إيه يا إسراء بنتمشّى في بيتنا احنا؟!

التفتت إسراء إلى الكاميرا وهي تعتذر:

- آسفة آسفة بجد، بص.. أنا هطلع فوق أتفرَّج على القصر على بال ما تخلَّصوا.

صَعِدت إسراء إلى الطابَق الأول عبرَ السُّلم الخشبي، وبدأ حازم التصوير من جديد ورامي يسجِّل ملاحظاته، ومساعد حازم يضبط الإضاءة وكاميرا أخرى، بينما رامي يتفحَّص تفاصيل القصر وقال:

- هبص بصّة سريعة فوق يا حازم.

بعد صعود رامي بدقائق رأيت إسراء تهبط ببطءٍ على السُّلم الخشبي مرتدية ملابس غريبة! فستانًا أحمرَ ضيقًا وقبعة سوداء وحذاء أسود عاليًا، ومجوهرات تتلألأ في أذنها ورقبتها ويدها فوق

قُفاز أسود طويل! وتُدخن سيجار لا يُدخنه أيٌّ منّا! كانت تنظر إليَّ وتضحك بسُخرية! بالتأكيد هذا أثر المخدر على ذهني مثله مثل مكالمة بترا، نظَرت إلى حازم فرأيته يبعد عينه عن الكاميرا وينظر باتجاه إسراء بذهولٍ، سألته بشكٍّ:

- حازم.. فيه حاجة؟!

اقترب حازم من الكاميرا مرة أخرى وهو يقول:

- مش عارف إيه اللي حصل؟ فجأة لقيت ظل إسود على السِّلم:

ابتلعت ريقي وأنا أراها أمامي تمشي بثباتٍ وتبتسمُ لي وحدي فقلت:

- ودلوقتي راح؟

نظَر حازم في العدسة وقال بلامبالاةٍ:

- راح.. معرفش إيه ده!

دخلت إسراء حجرة الطعام، وهبَط رامي دون أن يرَى ما أراه أيضًا، وبغتة شعَرت أنني عائم في بحر من العرق، وشعرت ببرودة في أطرافي، ثم أخذتني رعشة خفيفة، أوقفوا على إثرِهَا التصوير وبدَا عليهم القلق، حينها أصرَّ رامي على إيصالي للبيت لكنني رفضت، جلست وبدأت أطرد الأفكار اللعينة المخزنة في عقلي اللاواعي عن القصر منذ الصِّغر، ربما كانت ذكريات الطفولة السبب، وقد ظهرت في أول تعاملٍ فِعليٍّ داخل القصر، وبدأت أهدأ رويدًا رويدًا، لا بد أن أعرض نفسي في أقرب وقت على طبيب، بعدها طلبتُ منهم

استكمال التصوير ففعل حازم على مضضٍ.

ولم تمضِ مدة طويلة حتى سمِعنا صوتَ ارتطام شيء بالأرض، أوقف حازم التصوير وهو ينظُر إليّ بتلقائية فوجدني أجلس هادئًا، ظل رامي ينظر إلى فوق ليرى من أين أتى الصوت؟ لكن مساعد حازم نظر إلى الأرض مُتعجبًا وقال:

- ده آيكوس وقع من فوق!

نظر حازم إلى الأرض وقال بتعجُّب:

- ده آيكوس إسراء ! بس مش ده اللي يعمل الصوت اللي سمعناه!

صعد رامي إلى الطابق الأول وحازم ينظر نحو السُّلم في خجلٍ وقال:

- هي فين إسراء؟

وقبل أن يُكمل قاطعه مساعده قائلًا:

- بص كده يا ريس!

وعندها رأيت السيجار الإلكتروني يتحرك من تِلقاء نفسه في هِزَّات خفيفة! أخَذت أحدِّق فيما أراه وبدَا لي حازم ومساعده يريان ما أرى، سألتهما:

- إنتوا شايفين إيه اللي بيحصل ولا عيني مزغللة؟

لم يجيباني وظلت عيناهما مثبتتين على الأرض في ذهول وحركة السيجار تزداد عُنفًا وبدأ حازم يتمتِم..

- بسم الله الرحمن الرحيم..

عندها تحركت السيجارة الإلكترونية بغتة وبشدة نحو مساعد حازم وتحديدًا نحو عينيه فضرب نظارته بقوة فانكسرت العدسات الطبية! وترك آثار دماء بسيطة بين عينيه، للحظات أمسك نظارته وخلعها ببطء وهو ينظر إلى السيجار وإلى حازم بهَلَع، ارتمَى السيجار على الأرض مرة أخرى وأخذ يهتزُّ من جديد، وقبل أن أتفوَّه بكلمة أو أقوم من مكاني كان مساعد حازم يجري خارجَ القصر تاركًا كل شيء وراءه، وحازم ينظر إلى السيجار الإلكتروني مذهولًا، والذي توقَّفت حركته تمامًا عندما هبط رامي من السلَّم الخشبي وهو يسأل في حيرة:

- إسراء مش فوق يا جماعة.. حد شافها وهي نازلة؟

هنا علمت أنَّنا بصددِ مواجهة مجهولٍ لن يتركنا حتى ينالَ منّا، وانتابت حازم حالة من الهلع ودموع مُتحجرة في عينيه وهو يسمع سؤالَ رامي ولا يجد إجابة له!

حازم جمال

بعد أن صرف نزار مساعده وغادر مساعدا القصر بعدما رأيت بعيني السيجارة الإلكترونية تكسِّر نظارته الطبية، كان من الطبيعي أن يهرب من القصر دون كلمة واحدة، كان هاتف إسراء مغلقًا وبقيت أبحث عنها كالمجنون، لم يكن لها أثر في القصر كله، وبدأت أتذكَّر ما سمعته في طفولتي عن القصر ولعنته، وبدأت أشكُّ في كل شيء، ذهبت أسأل بترا في مكتبها فأصابها القلق وظلَّت تؤكِّد أنها لم ترَهَا منذ تركتها معنا عند الباب الرئيسي، ومع ذلك ذهبت لتبحث عنها معنا في القصر بعد أن فشِلت كل محاولات اتصالنا بها، وخِفنا من أن تُغادر القصر وإسراء ما زالت بداخله، كان رامي يبحث عنها في كل شبرٍ بالقصر بهدوء ويردِّد من حين لآخر:

- تلاقيها في أوضة من الأوض.. أصل هتروح فين؟

في هذه الأجواء المضطربة ظل إحساسي يتزايد بأننا مُراقبون! لا أعلم مِن مَن؟ في حين ظل نزار ينظر في ذعر إلى السُّلم الخشبي وإلى الجدران وإلى غرفة الطعام وكأنه ينتظر حدوث شيء! هُيئ إليّ أنه يرى أحدًا، فنزار ليس صديق طفولتي وجاري فقط، إنه شريك في الحياة ولأغلب نجاحات العمل، تقاسمناها معًا بحرفية شديدة؛ لذلك أجزم أنه لم يعُد ليجرِّب نوع مخدر جديد من باب الفضول كأيام مراهقتنا، لقد تغير نزار منذ زمنٍ، لكني لا أجد تفسيرًا لحالته في القصر! إنه يقف مشوشًا كالتائه!

وبينما أقف حائرًا بين ردود أفعال نزار المُقلقة وبين تعجّب رامي

من اختفاء إسراء، دخلت بترا وهي تتلفت حولها وقد تحول لون بشرتها إلى لون الدم، ارتطمت بالكاميرا بشدة فما كان مني إلا أن هرولت لأمنع سقوط الكاميرا؛ لأنها من أغلى المُعدَّات في شركتي بناء على بنود العقد ومستوى الجودة المطلوب، نظر نزار إلى بترا وسألها قلقًا:

- إسراء فين؟

أجابته بتوتر:

- انتوا ملقيتوهاش؟ أنا حاولت كتير أكلمها مفيش شبكة، وقلبت الدنيا عليها حتى الحمامات.

سألها رامي:

- سألتي أفراد الأمن، أكيد خرجت وأكيد شافوها.

أردفت بعصبيةٍ:

- ما هي قبل ما تخرج من بوابة القصر كان لازم تنزل من فوق الأول!

نظرت له بترا بقلقٍ وقالت بنبرة خافتة:

- محدش شافها، حتى في كاميرات البوابة.. مخرجتش!

اقترب رامي ووضع يده في خصره وقال بتهكم:

- يعني إيه الكلام ده؟ هتكون راحت فين؟ القصر بلعها؟

كُنت أمشي جيئة وذهابًا في مكاني كالمجنون، للحظات شعرت

بأنني لا بد أن أستيقظ من هذا الحلم السخيف، لكن هذا لم يحدث أبدًا، ساد الصمت للحظات لم تزدنا إلا حيرة، وفجأة امتلأ المكان بصوت ترانيم قوية، ترانيم تصدر من سماعات داخل القصر، نغماتها مألوفة لي، نظر رامي إليّ بذهول وقال:

- إيه ده؟

تلفت نزار وبترا حولهما وقد أخذهما الذُّعر وقال نزار لبترا:

- هو في حد غيرنا هنا؟

- لأ طبعًا.. دي أجازة رسمية!

انَسال العرق فوق جبيني وأنا أقول:

- إيه اللي بيحصل يا جماعة؟ مراتي فين؟ أنا مش خارج من هنا إلا ومعايا إسراء.

كان رامي يستمع بدقة إلى الترانيم ويبحث عن مصدر الصوت! لكني أتذكّر هذه النغمات جيدًا، أردفت بعصبية واضحة:

- موسيقى الترانيم دي أنا متأكد سمعتها قبل كده.. سمعتها فين مش فاكر! أيوه.. كانت في كنيسة كاثوليكية في الفاتيكان؟ ممكن كمان في كنيسة البازيليك!

قالت بترا وهي تنظر حولها بخوف:

- غريبة.. دي إسراء كانت النهارده بتقول نفسها تحضَر قُداس الأحد في كنيسة البازيليك!

أردفتُ على الفور:

- إسراء عمرها ما قالتلي حاجة زي كده!

قالت بترا:

- الكلام جاب بعضه وهي بتسألني عن السرداب اللي بيربُط القصر بالكنيسة!

قال رامي وهو يُمسك بهاتفه:

- الصوت جاي من تليفوني يا جماعة أنا آسف، في حاجة غلط مش عارف إزاي فتح لوحده عليها! الترانيم دي كُنت هحطها على تصوير كنيسة البازيليك!

أوقف رامي الترانيم حينها فقالت بترا، وهي لا زالت تنظر إلى الجدران:

- أظن لحد كده كفاية قوي لازم نمشي.

انفجرت دونَ وعي..

- لاااا.. نمشي فين! أنا كده أكلِّم الشرطة تيجي تشوف إيه اللي بيحصل هنا..

عندها رأيت خالد الشافعي يصعد درج المدخل بسرعة، دخل البهو وهو لا يكاد يلتقط أنفاسه وقال بصعوبة:

- بكلمكم من بدري تليفوناتكم مقفولة.

قال رامي بسخافة:

- في حاجة يا خالد؟

قال خالد وقد وضع يده على صدره ليتحكم في أنفاسه:

- إسراء!

اقتربت منه على الفور وشعرت أن روحي تصعد من صدري وقلت:

- مالها؟

قال وهو يتنفس بصعوبة:

- عند أونكل إسحاق.

قالت بترا باستنكار:

- إزاي يا خالد الكلام ده! إسراء مخرجتش من القصر!

نظر خالد لها بتعجّب ثم إلى رامي وقال:

- هو أنا يعني جاي جَرْي من بيتك لحد هنا علشان أعمل مقلب مثلًا؟ يا جماعة إسراء شكلها غريب، بدل ما انتوا قاعدين تبصُّولي كده يا ريت نلحقها.

سألته خائفًا:

- شكلها غريب إزاي؟

زاغت عينا خالد قبل أن يقول بصوت خافت:

- غريب لدرجة إني كنت خايف أسيبها مع أونكل إسحاق لوحده.

سأله رامي:

- وصباح فين؟

قال بتعجب:

- من ساعة ما جت إسراء وصباح في الحمام تعبانة!

قالت بترا بقلقٍ:

- ياللا يا جماعة بسرعة نشوف في إيه، أنا جاية معاكم.

إسحاق محمد النحاس

عندما فتحت الباب لإسراء زوجة حازم انتابني شعور سيئ، وعلمت لماذا كان "سكر" مُتوترًا في قفصه منذ قليل، عندما رن جرس الباب ظل يصرخ بلا سببٍ واضح! لم أنتبه لتنبيه سكر وفتحت الباب على غير عادتي.

لم تعتَد إسراء زيارتي أو السؤال عني مثلما يفعل زوجها حازم، استقبلتها بحرارة لكن عينيها أخبرتاني بما أخاف منه، لم تكن إسراء مَن زارتني، كانت هي؛ لذلك أردت أن أدعها تعلم أنني أعرفها وأنني لستُ خائفًا، وأوهمها أنني وحدي في البيت حتى تتصرَّف على سجيتها وأعلم ما تنويه بداخِلها، أخذت أنفض عن عقلي آثار الذِّكرى المؤلمة التي جعلتني قعيدًا، هل أنا من جلبت اللعنة أم أبي؟ على مدار سنوات ظننت أنها رحَلت، لكن يبدو أن ظنِّي قد خاب الآن، وأنها كانت في انتظار الشخصية المناسبة فقط.

دخلت إسراء تمشي في زهو وعيناها تلمعان وهي تنظر في جميع الأركان، ألقت حقيبة يدها على أحد المقاعد قريبًا من مدخل الشقة، ثم أغلقت باب الشقة ومالت بجسدها إلى الأمام إلى أن جعلت أعيننا على مستوًى واحد وهي تحدِّق فيهما ورأسها تتمايل يمينًا ويسارًا وقالت بتشفٍّ:

- يااااه.. أخيرًا.. عاش من شافك يا دكتور.

كانا خالد وصباح يُعدان القهوة في المطبخ، سمِعت ضحكاتهما عالية وتمنيت ألَّا يخرجا من المطبخ قبل أن تغادر إسراء، أقصد هي.

قصدت الصالون فمشت هي بجانبي ونظرت له بفخرٍ، ثم وقفت أمام إحدى المِرْآتين تنظر لنفسها بإعجابٍ وإلى الصورة بين المرآتين بزهو وقالت بسخرية:

- أنا مبهورة إنك قادر تحافظ على كل حاجة كل السنين دي، لكن يا خسارة.. مقدرتش تحافظ على نفسك.. بقيت خُردة!

كان عقلي يتساءل: ماذا فعلتِ يا إسراء في القصر لكي تستخدمك؟ إنها تُحاول استفزازي؛ لذلك لن أُعلق لكنها سألتني:

- عارف أوحش حاجة في الدنيا إيه؟ إن البني آدم لما بيكبر مش بيموت على طول، بيموت على مراحل، وكل حاجة بيحبها بتموت، حتى الناس اللي بيحبهم بيموتوا أو بيسيبوه، يعني بيموتوا برضه..

إنها تقصد رامي، كظَمتُ غيظي وهي تُطلق ضحكة رقيعةً وتتكلم بتهكُّم:

- ولحد ما ييجي ميعاد موته بيبقى مات ألف مرة.. حظكوا وحش.. معلش، مش بتقولوا معلش برضه علشان تصبَّروا بعض؟

ثم دخلت البلكون وسط صرخات "سكر" ووقفت تتأمل قصر البارون والتحدي يملأ ملامحَها، ثم تلفتت إليّ وابتسمت بشكلٍ يدعو إلى القلقِ، وأخذت تعود وتقترب مني على مهَلٍ إلى أن أصبح وجهها في مقابل وجهي واختلطت أنفاسي الخائفة بأنفاسها الشيطانية، نظرت في عيني تتفحص مستوى الخوف عندي، اقتربت أكثر من رقَبتي تشتم عطرًا قديمًا تضعه لي صباح كل يوم، ثم ضحكت وهي

ترجع برأسها إلى الوراء بسخرية وقالت:

- مش الصالون بس اللي قديم، لسه كل حاجتك قديمة حتى عقلك.

حينها دخلت صباح تحمِل صينية القهوة، وما إن رأت إسراء حتى فُغِر فاهُها في ذهولٍ، لا أعلم لماذا، لكني سمعتها تهمِسُ: "بسم الله الرحمن الرحيم"، تُرى هل رأتها صباح على حقيقتها؟

دخل خالد يحمل صينية أخرى بها طبق من الكعك فقال بتعجب:

- إسراء! إنتوا خلصتوا تصوير؟

تجاهلت إسراء سؤال خالد تمامًا، نظرت صباح إليه وكأنها تحذِّره من شيء ، حينها التفتت إسراء لهما وفي عينيها الغدرُ وبدأت تقترب منهما، فكانت نظرات التعجب تزداد من خالد، ونظرات الخوف تزداد عند صباح، إلى أن وقفت أمام صباح ونظرت في عينيها فوقَعت صينية القهوة من يدِ صباح، أسرع خالد يضع صينية الكعك جانبًا ليُساعد صباح التي تحجَّرت مكانها، نظرت إسراء إلى إضاءة المكان فانطفئت على الفور، ساد الظلام وجلجلت ضحكات شيطانية سرعان ما توقفت، بعدها شاهدت الشموع المُنطفئة في الشمعدان الفضي تشتعل الواحدة وراء الأخرى من تلقاء نفسها! ضحكت الشيطانة باستهزاء وقالت:

- كلير أخدتِ الشمعدان ده هدية من كَنيسة البازيليك، وقعدت سنين تولَّع الشمع وتصلِّي! عملت إيه بكل ده؟ ابنها سافر وسابها تموت لوحدها، مسكينة زي مساكين كتير.

فُغِر فاه خالد ونظرت صباح إلى إسراء شاردة، ودون حديث بينهما ذهبت صباح إلى الطُّرقة ووراءها إسراء، ذهبت أنا وخالد خلفهما، فصحت في غضبٍ:

- صباح.. تعالي هنا، متعمليش اللي قالتلك عليه.

لكن صباح المسكينة لم تسمعني ولم تُعرْ كلماتي انتباهًا، كانت تحت تأثيرها الكامل مثل إسراء تمامًا، دخلت إسراء غرفة المكتب وعندها رأيت صباح تتجه نحو الحمّام، كل هذا وخالد في ذهول ينظر إلينا ويسأل صباح بصوتٍ خافت:

- صباح.. إنتي كويسة؟

لم تنظر إليه ولم تُجِبهُ، نظر إليّ خالد في ذهول وهو يرى صباح تتحرك كالإنسان الآلي ثم نظر إلى إسراء داخل مكتبي وهي تتفحصه، وقال وقد تسمّر في مكانه بنبرة حائرة:

- هو إيه اللي بيحصل يا دكتور؟!!

قلت:

- كلم رامي وحازم بسرعة قولهم ييجوا.

بعد محاولات اتصال فاشلة لسوء الشبكة، قال خالد إن ذهابه إليهم في قصر البارون سيكون أسهل بكثير، وافقته على مضضٍ، وذهَبت إلى الصالون بسرعة لأنتظرهم في البلكون، وفي اللحظة التي أغلق خالد الباب وراءه كانت إسراء أمامي مباشرة! أحكَمت قبضة يدها حول رقَبتي وعيناها تلمعان وتتفحصان أوردتي التي تكاد أن تنفجرَ

ثم قالت:

- فين الأمانة اللي بقالها سنين معاك؟

جحظت عيناي وسعَلتُ بشدة وقلت بصوت ملؤه الإعياء:

- مفيش حاجة هترجع.

كُنت أعلم أن هذه الشيطانة ستفعل أي شيء من أجل فتح ما أُغلق في الماضي، وحافظت أنا عليه لعقودٍ، نظرت إليّ بثقة وتغيرت نبرة صوتها إلى شيء لم أسمعه من قبل وقالت:

- مش هتقدر يا إسحاق .. وإلّا هتدفع التمن غالي، إنت عارف كويس أقدَر أعمِل إيه.

لم أُجِبْها فألقَت جسدي بعنفٍ على الأرض وأصبحت بلا حول ولا قوة، أنادي على صباح فلا تجيبني، نظرت هي نحو القصر، وفجأة انطفأت شموع الشمعدان وأُضيئت أنوار الشقة، ورأيت إسراء تتغير ملامحها أمامي وتنظر لي في حيرة وتنظر نحو القصر مذهولة، ثم تنظر داخل الشقة وتقول:

- أونكل إسحاق ! إيه اللي وقّعك كده؟!

ساعدتني إسراء على النهوض مرة أخرى في قلقٍ وهي تقول بذهول:

- هو أنا جيت هنا إزاي؟!! أنا مش فاكرة إني جيت! بقالي كتير هنا؟!

حينها رأيت صباح تدخل إلينا في الصالون وعلى جبينها آثار دماء وتقول وهي تنظر إلى الأرض:

- هو في حاجة اتكسرت على الأرض ولا إيه؟ وفين خالد؟

ثم نظرت إلى إسراء وشهقت وهي تقول:

- إسراء! تخيَّلي كنت بحلم بيكي دلوقتي!

نظرت إليها إسراء وبدَت مصعوقة وبحثت عن حقيبتها حتى وجدتها وقالت في قلق:

- أنا لازم أروَّح دلوقتي، زمان حازم قلقان عليَّ.

خرَجت إسراء من الشقة في حالة مُزرية، وظلّت صباح في حالة عجيبة! حينها علِمتُ أن هذه الشيطانة لن تتركنا أبدًا، وستستخدم إسراء حتى تنالَ غرضها منِّي أو تقتلها، وأنا لن أدعها تفعل بذلك وسأدفع الثمن غاليًا كما قالت، أتمنَّى لو يعلم رامي ما ورثته عن أبي لكي يحفظه من بعدي.

بعد دقائق كان رامي يفتح الباب ومن خلفه حازم ونزار وخالد وبترا صديقتهم، كانوا جميعًا قلقين إلى أقصى حدٍّ، سألني حازم مُتوترًا:

- إسراء فين يا أونكل؟

فهمت أنها اختفت من القصر فقلت:

- لسه ماشية من دقايق وقالت إنها مروَّحة.

- جت تعمل إيه هنا؟

- الحقيقة يابني مسألتهاش، بس شكلها كان غريب ومتكلمتش.. خلي بالك منها يا حازم.

قال رامي:

- حضرتك كويس؟

لم أشعر بخوفه عليّ فأجبته باختصارٍ:

- الحمد لله.

خرج حازم وهو يقول:

- معلش يا أونكل هكلمك تاني بس أطمّن عليها.

خرجوا جميعًا إلّا خالد ونظرت إلى صباح أتفحصها فكانت تُمسك برأسها وتقول:

- صدااااع.. مش عارفة إيه اللي حصلّي!

ثم نظرت إلى يدها بذهول وقالت:

- دم!

فهمت حينها أنها لا تتذكر شيئًا على الإطلاق، قال خالد وهو ينحني أمامي لنصبح وجهًا لوجهٍ وقد غطت ملامحه الحيرة:

- دكتور إسحاق .. حضرتك طول عمرك بتعتبرني ابنك، اللي شفته النهارده ده مش طبيعي، اللي مش طبيعي أكتر إن حضرتك مش

متفاجئ! أنا عايز أفهم إيه اللي بيحصل؟

نظرت في عينيه ووجدت في نفسي ما يدعو للوثوقِ به عبْرَ السنين فقلت:

- هحكيلك.. بس إوعِدني محدش يعرف حاجة، خصوصًا رامي، أنا عايزة يعرف منّي أنا.

رامي إسحاق

استيقظت برأس ثقيلة لا تصلُح لشيء، كان ميعاد قهوة صباح لكنها لم تطرق الباب بعدُ، وكان الهدوء يسود البيت، جلست مكاني في سريري أفكر في جدول اليوم، لكن باغتني صوت ماكينة الخياطة تعمل! هل تستخدم صباح ماكينة أمي؟ ذهبت لأتفقدها ولا أعلم لماذا مشيت على أطراف أصابعي، كان باب غرفة أمي مغلقًا والصوت يزداد كلّما اقتربت، وقفت أمام الغُرفة وقلبي يشعر أنني سأرى أمي الحبيبة، لكن عقلي يُعنِّفني ويهيئني لرؤية صباح بدلًا من كلير، أخيرًا، تشجّعت وفتحت الباب وللعجب لم يكن أحد بالداخل! وكانت ماكينة الخياطة كما هي فوق مكتب قديمٍ في أحد أركان الغرفة ومُغطاة بملاءة بيضاء! تسمَّرت في مكاني ولم أفهم شيئًا!

لا لا ستأكلني الأوهام، هذا تأثير الذِّكريات وما حدَث في القصر، لا بد أن أركِّز، لقد مرّ يومان على أول يوم تصوير في قصر البارون، يومان من التفكير والتعجب وكثير من علامات الاستفهام، والأحداث غير المنطقية، واتفاق لم يُبرم بيني وبين حازم ونزار بعدم الاتصال! لم نتواصل منذ أن وصلنا لبيت حازم ووجدنا إسراء تستقبلنا وكأنها لم تفعل شيئًا! وتشكو من صداعٍ قوي، ثم تسأل كيف أنهينا التصوير! عندما سألتها متى وكيف غادرت؟ أجابت ببساطة أنها أخبرت حازم بذلك؛ لأنها لن تتحمل نوبة الصداع التي انتابتها حينها! لكن سؤالي: لماذا ذهبتِ لأبي؟ أجابته بالاندهاش والنفي!

سألها نزار: هل كان حازم بمفرده عندما أخبَرَته بمغادرتها للقصر؟

فأجابت أن جميعنا كُنا مشغولين، وأن حازم كان بصُحبة مُساعده، حينها اتصل حازم بمساعده الذي هرب من القصر ليسأله فأجابه أنه بالفعل حضَر هذا الحوار قبل حادثة كسر نظارته! وأنه طلَب من إسراء ألا تُرهق نفسها في إعداد الطعام؛ لأنه سيطلب لهما بيتزا عند عودته! زاغت نظرات حازم بينها وبيننا وبدَا مضطربًا إلى حدٍّ كبيرٍ، قال نزار حينها لحازم مؤكدًا:

- الكلام ده محصلش، أنا كنت واقف! أعتقد لازم نوقف تصوير في القصر يا جماعة.

لم يجبْهُ حازم، ولم أعْتَد بحديثه؛ لأنه تخيل مكالمة لم تحدُث من بترا، وبعد لحظات من الصمت طلب منّا الاستمرار في التصوير في القصر كي يعلم ماذا أصاب زوجته؟ يظن حازم أن البُعد عن القصر ليس بالأمر السليم الآن، وأن علاجها يكمن في التمهُّل ربما عِلِمنا السر وراء كل ما حدَث لزوجته، وافَقْنَا على سبيل الوقوف بجانبه.

وبالرجوع إلى التفكير في مستقبلي في مصر ووعدي بمساندة حازم، وبالرغم من عدم تفسير ما حدَث لعقلي، وجدت أيضًا أنه من غير المنطقي أن نلغي قصر البارون من خُطة العمل، هذا يعني أننا سنتوقَّف عن العمل في أي أثر يصادفنا فيه أي نوع من المشاكل، وهذا شيء وارد، ثم إنني في قرارة نفسي غير مقتنع بكثير مما سمعته في طفولتي من دكتور إسحاق عن القصر، ولم أكُن أومِن بالماورائيات بالأساس، ثم إن الحكايات الموروثة حفَرت في العقول الكثير من الأساطير عن القصر، ربما كان نزار يهذي وإسراء بالفعل أخبرت حازم وهو منهمك في العمل، أما ما علمته عمّا حدث لمساعد

حازم فلم أُصدقه؛ القصة غير مكتملة، لذلك- ورغم كل ما حدث- حمِدت الله أن ماريز اعتذرت عن الحضور في أول أيام التصوير، لا أريد لها أن تتأثر وتعتذر عن المشروع كله، إن هذا المشروع فرصتي في إعادة الحياة من جديد على كل الأصعدة.

عندما غادرت أنا ونزار وبترا لم نتحدّث في شيء ، لكن عند عودتي للبيت كانت صباح أيضًا تشكو من صداعٍ لا يفارقها منذ أن رأت إسراء، وأنها لم تشعر بشيء كهذا من قبلُ! لم أفكِّر في التحدُّث مع خالد، وبترا لا تُجيب هاتفها وتبعث رسائل على تطبيق الواتساب أنّها بخير ولا شيء يدعو للقلق! أما الدكتور إسحاق فقد انعزل كما انعزلت أنا وأصدقائي تمامًا، لكنه في الصباح يجلس كعادته في البلكون وينظر إلى القصر، ثم ينظر إليّ نظرات كلها حيرة وتردُّد! في نهاية الأمر كان لا بد لنا جميعًا من أخذ هُدنة لكي نفهم ما حدَث ونُمنطِقه ولم نستطع، وكان لا بد من القرار النهائي، هل سنُكمل التصوير في القصر؟ نعم.. لقد اتفقنا مع بترا على مُعاودة التصوير من الغدِ.

أثناء كل هذا كُنت مُقدرًا ما مرَّ به حازم؛ لأنه كان السبب الرئيسي فيما حدَث، فلولا أنه نسي ما قالته إسراء له ما كنا نبحث عنها كالمجانين وكأنها اختفت داخل جُدران القصر، هذا شيء وارد في زحمة العمل، أن ننسى أحداثًا بينما نحن منهمكون في العمل، فهذا يعني بنسبة كبيرة أننا لن نتذكّرها لاحقًا، أما بشأن عدم رؤيتنا لإسراء وهي تخرج من القصر، فقد لاحظت أن كاميرات القصر قديمة، فربما بها عُطل ما وتحتاج إلى صيانة.

المشكلة الأساسية هنا هي تأثر حازم منذ الطفولة بأساطير القصر، والحالة التي رأيت عليها نزار يومها، وكأنه قد عاد إلى ما كان عليه أيام المراهقة، سمعت أصواتًا خافتة تأتي من الخارج، أعتقد أنه صوت أبي يتحدّث مع أحد، لماذا تأخرت صباح اليوم عن ميعاد قهوتي؟

قمتُ من مكاني وفتحت الباب متجهًا إلى الحمام لكنني سمعت صوت خالد الشافعي، هل كان يتحدث إلى صباح لذلك تأخَّرت؟ هذه المسكينة لم ترَه مع ماريز لتفهمَ، لكن عند وصولي للمطبخ وجدته خاليًا والحمام مشغولًا، وسمِعت صوت دكتور إسحاق يقول هامسًا:

- خلص بسرعة مش عايز حاجة منه تِبان.. وغَطّ الصورة دي، وحط الشمعدان ده في السفرة دلوقتي.

خرجت إلى غرفة الاستقبال وسمعت صوت "سُكر" عاليًا يصيح من البلكون "كلير.. كلير"، ورأيت خالد الشافعي يغطي الصالون بقماش أبيض! لا بد أن صباح هي مَن في الحمام، نظرت إليهما مُندهشًا وقلت:

- صباح الخير.

لم يكترث خالد وظل يغطّي الصالون، هذا الأبله يظن نفسه صاحب بيتٍ! نظر إليّ الدكتور إسحاق وكان باديًا عليه الإرهاق وقال:

- صباح النور.. محتاجين نتكلم شوية.

أومأت موافقًا، وأنهى خالد ما يفعله وهو ينظر في ساعته، عندما

خرجت صباح من الحمام بدَت مرهقة فسألها خالد باهتمام مُصطنع..

- إنتي كويسة؟

- تعب بسيط.

- طيب ياللا يدوب ميعاد الحقنة علشان ألحق المستشفى.

- ثواني كله يبقى جاهز.

نظر دكتور إسحاق إلى خالد وقال:

- صباح مش بتنام خالص من يومها!

نظر لي خالد في اشمئزاز وقال:

- عرفت من حازم إنكم هتكملوا تصوير في القصر.

اعتدلتُ في وقفتي لأواجهه وقلت بتهكم:

- فيه مانع؟

- بلاش البارون يا رامي، إحنا مش قدُّه، إنت متعرفش حاجة، أنا أعرف أكتر منك عن القصر و...

اقتربت ووقفت أمامه وقاطعته بحدةٍ:

- إحنا مين؟ ليه بتحط نفسك في جملة مفيدة معانا؟ إنت شريك معايا في الشركة؟ إسمَع يا خالد، أنا متحمِّلك في البيت بالعافية، علاقتك بحازم ونزار والباقي حاجة، وأنا حاجة تانية خالص.. خلي بالك.

انفعل الدكتور إسحاق وهو يوجِّه الكرسي المتحرك نحونا حتى أصبح في المنتصف بيني وبينه وصاح:

- رامي.. كفاية كده، خالد ميقصدش حاجة وحشة.

تحدَّث خالد بنبرة باردة وعينه في عيني دون أن ينظر له.

- أنا مش زعلان يا دكتور، معلش هو تلاقيه نسي القصر من القعدة في أمريكا، هو أنا صحيح أصغر منه بس بكرة يفهم.

حاولت أن أكظم غيظي وقلت:

- واضح إنك شايف نفسك صغير فعلًا.

ابتسم وقال في برود:

- لو احتجت حاجة وانتوا بتصوروا كلمني، أنا عارف إنك هتحتاج.

حينها دخلت صباح واجمة وهي تنظر لخالدٍ وتقول:

- الحقنة جاهزة.

التفت دكتور إسحاق إلى خالد وصباح وطلب منهما أن ينتظراه في غرفة مكتبه، وبعد أن ذهبا التفت إليّ وقال:

- رامي.. أنا عامل عزومة لكل فريق العمل بكرة بعد التصوير، القصر بيقفل الساعة ٤ العصر.

لم أشعر وأنا أبدي اندهاشي بكلمة واحدة:

- ليه؟

- تقدر تقول بمناسبة رجوعك للبيت.

إنه لا يُفصح عن السبب الحقيقي، لأول مرة لا أفهمه ولم أعلِّق فقال:

- عمري ما تخيلت إن هييجي يوم تصوَّر فيه القصر، ويكون في مشروع كبير زي اللي بتعمله.

ابتسمت مُجاملًا فأكمل حديثه:

- أنا واثق إنه هيبقى مشروع ضخم، أنا بس عايزك تخلي بالك على نفسك، عادة الأماكن الأثرية بيبقَى وراها حكايات كتير وبالذات البارون.

- مش معقول حضرتك مصدَّق بجد حكايات زمان؟

ابتسم وتركني مع سؤالي دونَ إجابة، ودخل مع خالد وصباح لغرفته ليتناول أدويته، ماذا يريد أن يقول؟ عندما يصدِّق طبيب كبير مثله هذه الخرافات لا بد أن أخاف على مستقبلي في مصر، هل لا زال الناس يؤمنون بخرافات الثمانينيات والتسعينيات عن القصر إلى الآن؟ هذا ما لم أتوقعه أبدًا، وإذا كان هذا صحيحًا، كيف لي أن أروِّج لمشروع "الميتافيرس" في بيئة كهذه!

صياح الببغاء "كلير.. كلير" عاد من جديد، وأنا أقف في الصالون المغطَّى بالأبيض وكأننا سنهاجر وأردت بحقٍّ أن أفهم، لماذا فعل هذا؟ لقد غطَّى المرآتين والصورة المرسومة لهذه السيدة التي كانت تخيفني صغيرًا، وترك صورة السيدة العذراء وآية الكرسي

دون غطاء، كشفت صورة السيدة لأنظر في عينيها وقد بثّ رجلًا لا يخاف، تأملتها قليلًا، لا أعلم لماذا خِفت منها صغيرًا؟ هذا رسَّام بارع رسم سيدة ذات ملامح تبدو هادئة لكنها حادة جدًّا وبها شرٌّ مُستتر.

حينها شعرت بنفَسٍ ساخن يلفح رقبتي من خلفي مباشرة ويد تُطبطب على كتِفي، التفت بتلقائيةٍ شديدة وانتبهتُ أنه لا يوجد أحد معي! نظرت مرة أخرى إلى السيدة فبدا لي أن ابتسامتها اتسَعَت أكثر! ولا أعلم كيف رأيتها تُشبه إسراء زوجةَ حازم!

أسدلت عليها الغطاء الأبيض بسُرعة وعلمت أن الطفل بداخلي لا زال خائفًا.

إسراء سمك

رغمًا عنِّي شممت رائحة العفن وأنا أمشي ببطء في سرداب مُظلم وأمسك بيميني شمعة حمراء طويلة! ولا أملك أن أُغطي أنفي لقلة الأكسجين، أُدقِّق النظَرَ وأخطو خطوات قصيرة حَذِرة؛ فالشمعة لا تُنير إلا مسافة قصيرة أمامي، وأنا لا أرى آخرًا للسرداب، إنه ينعطف بي إلى اليمين قليلًا تارة وإلى اليسار تارة أخرى ثم يعود إلى خط مستقيم؛ على يميني مررت بلوحة مُعلقة على الجدار، فرجعت إليها وقربت منها نور الشمعة فوجدت هذه الكلمات "أهلًا بكم من الباب إلى الدار"! وحينها لمحت امرأة أمامي على بعد أمتار، أدرت الشمعة باتجاهها فإذا بي أرى وجهَهَا مألوفًا، كانت ترتدي فستانًا أحمر وقبعة سوداء مائلة على نصف وجهها وقفازًا أسود طويلًا، تُمسك بسيجارٍ وتنفُث دخانه لأعلى، نظرت إليّ وأشارت بطرف إصبعها أن أتبعها وهي تَهمِس "مِن هنا.. لسّه الطريق طويل"، أسرعت الخُطَا وراءها كي ألحق بها، لكن خطواتها كانت سريعة وكأنها تطيرُ، بعد بُرهة بدأت ألهثُ فوقفت ألتقط أنفاسي وسمِعت صوت حازم قويًا يصيح:

- نزار كان مأفورًا! نزار رجع تاني للزفت! أنا مش مصدق!

فتحت عيني نصف فتحة فرأيت "حازم" يضعُ يديه في خصره وقد بدَا مصدومًا، حاولت أن أفتح عيني فتحة كاملة فواجهَني نور الغرفة فأغمضتها ثانية وقلث بصوتٍ ناعسٍ:

- حازم.. إطفِي النور حرام عليك، أنا المفروض نايمة.

تحت تأثير الصدمة لم يسمعنِي وأكمل:

- نزار الله يحرقه كان شادد يوم التصوير.. تخيَّلي! أنا شكّيت للحظات بس كنت بكَدّب نفسِي!

استندت على مرفقي في إعياء بعينٍ واحدةٍ تنظرُ إليه:

- ممكن تسيبني أنام ساعتين كمان، ياريتنا ما كنَّا صورنا القصر!

زفر في ضِيق وهو يستوعب كلماتي وقال:

- طيب أنا نازل.. هنصوَّر في القصر ويا ريت متجيش، أول ما أخلص هعَدّي عليكي علشان عزومة أونكل إسحاق.

بضغطةٍ بسيطة على مفتاح الكهرباء عاد الظلام الجميل، لم أجادله؛ لأنني لم أشعر في حياتي كلها بإرهاق مثلما شعَرت به منذ هذا اليوم العجيب، أول يوم تصوير في قصر البارون، إلى الآن أتعافى منه ولا أريد أن أتذكّره.

في الحقيقة أنا بالفعل لا أتذكّر ما حدَث معي في غرف القصر حينما صَعِدت بمفردي، لا أتذكَّر سوى الصداع القوي الذي يُصيبني منذ هذا اليوم إلى الآن، أشعر بأنني لست على ما يُرام، يكفيني أن حازم يُقسم حتى الآن أنني لم أُبلغه أنني سأغادر القصر، وأنه لم يرَني أغادر! وأنني ذهبت لأونكل إسحاق ! وأنه يومها لم يتناقش أمام رامي ونزار وبترا من باب الخصوصية لا أكثر، لكنه لا يجد إجابة عندما أسأله كيف رآني مُساعده وأنا أغادر القصر وأخبره؟

طار النوم من عيني بسبب قصة نزار التي لم تفاجئني، حازم فقط من ينسج أوهامًا حول أصدقائه، أما أنا فأراهم على حقيقتهم، وأنا

لا أرَى نزار مع كل نجاحه في عمله، إلا شخصًا يحمل من العوامل الجينية ما يجعل احتمال حدوث اضطرابات في كيمياء مخِّه أمرًا جائزًا، فوالده كان مدمن كحولٍ وقد عانت والدته كثيرًا معه.

وأخيرًا، نهضت من نومي المتقطع مُرهقة، لكني حمِدت الله أنَّ الأولاد قد سافرا مع خالتهما إلى الساحل؛ لأني لا أملك الطاقة الكافية لهما هذه الأيام خاصة مع غياب المربية، هذا سيعطيني مزيدًا من الوقت أقضيه مع حازم في التصوير، ولكن ليس اليوم، بالرغم من التعب لكن فضولي لم يفتر تجاه القصر، أريد أن أعرف أكثر عنه، والحقيقة أن منذ بدء التصوير فيه كان تأثيره قويًا علينا، أحلامي العجيبة لا تنقطع، وحازم يقرأ عن البارون إمبان وقصره بشكل يومي، يتحدّث مع دكتور إسحاق عن نفس الموضوع، هذا الرجل موسوعة معلومات تاريخية، العجيب أن علاقتي به لم تكن يومًا قوية، لكنه بدأ يُرسل لي سلامه ويطمئن على صحتي، واليوم كلنا مدعوين على الغداء عنده! هذه المرة الأولى منذ زواجي التي يدعونني فيها.

أثناء ذهابنا لعزومة دكتور إسحاق ابتاع حازم الآيس كريم لنا جميعًا من أحد المحلات الشهيرة بمنطقة الكوربة، وفي طريقنا القصير إلى بيته كان حازم يتحدّث مُنفعلًا إلى رامي في الهاتف:

- هو عارف إني هقولك.. مشاكل إيه اللي مع كارول تخليه يعمل كده! مبحبش الناس اللي بتخيب على كبَر، عمومًا متكلموش في حاجة النهارده عند أبوك مش عايزين فضايح.

عندما وقفنا أمام باب الشقة سمِعنا أصوات ضحكات متفرقة، فتح خالد الشافعي الباب ورأيت معه كلبه سيزرا تفاجأت لأنني أُحبه أكثر منهم جميعًا فقال وهو يداعبه:

- وحشني.. عدِّيت على صاحبي أخدته منه شوية.

دخلنا وحيينا أونكل إسحاق وخالد وصباح وكارول ونزار ورامي في غرفة الاستقبال، من الواضح أن صباح أعدت أنواع مشروبات مختلفة، كانت بترا في البلكون تتحدث الإنجليزية بلكنة بريطانية مُتقنة وتضحك ثم دخلت لتنضم إليهم وشعَرت بالبهجة تسود المكان، بالرغم من تعجبي لرؤية الصالون مُغطَّى كأنهم مُسافرون! أعطَتني صباح عصيرَ التوت المفضَّل لي، نظرات صباح لخالد كانت مفهومة وبدَت مرتبكة إلى حدٍّ كبير، ولبُرهة استمتعت بالمشروب أكثر من حديثهم التافه، حينها دخل الشيف وقال:

- إحنا جاهزين يا دكتور.

إذن هذا ليس غداء عاديًّا، هذه دعوة فخمة، ماذا وراءها يا تُرى؟ نظر رامي في ساعته وقال:

- نستنى كمان نص ساعة علشان العدد يكمل:

إنه ينتظر ماريز بلا شكٍّ. قال والده وكأنه قرأ أفكاره:

- ممكن ندخل السفرة دلوقتي ونستنَّى زي ما قال رامي، لسه في ناس مجتش.

داخل غرفة الطعام العتيقة كانت الأجواء ساحرة، وكأننا انتقلنا إلى

عصر آخرَ، تبدو لي الموبيليا القديمة كئيبة لكنها ثمينة، كانت المائدة جاهزة تمامًا ووقف النادل يُشعِل شموع الشمعدان قديم الطراز على البوفيه، شمعدان يبدو باهظ الثمن، بعد قليل رن جرس الباب، وبينما كانت بترا تبذل جهدًا كبيرًا مع رامي لتجذبَ انتباهه، كان هو مثل الطالب الذي ينتظر نتيجة الامتحان، يتوق لرؤية ماريز.

جلس سيزر على الأرض هادئًا، ودخَلت ماريز في كامل أناقتها وسلمت علينا جميعًا، وتبدّل حال رامي وكأنه نجح في الامتحان، وجاهدت بترا لتتجاهلَ غيرتها، كما فضَحت نظرات خالد لماريز أفكاره، جاء نادلان بأصناف كثيرة على السفرة، كان دكتور إسحاق على رأس المائدة، وعلى يمينه خالد الشافعي وصباح ونزار وكارول، وعلى يساره جلس حازم ثم أنا وبجانبي ماريز ثم رامي بينها وبين بترا، لاحظت اهتمام دكتور إسحاق بي أكثر من المعتاد، بل أظنه يتفحّصني بشكلٍ ما!

بدأ النادل يسأل عن المشروب المفضّل لكل منا، أثناء ذلك رن جرس الهاتف وكانت أختي، لا بد أنها تستفسر عن شيء يخُص الأولاد، قُمت من مكاني واستأذنت:

- هرد من البلكونة.. هنا الـ signal ضعيفة.

خرجت من الغرفة وسيزر يصحبني ونظرات دكتور إسحاق أيضًا، دخلت البلكون وأجبت أختي واطمأننت على الأولاد، وفجأة صرخ الببغاء صرخات عجيبة ثم وقف في ركن قفصه مُنكمشًا! في طريقي إلى غرفة الطعام وقفت في الصالون المُغطّى بالقماش الأبيض، إنهم

حجبوا كل اللوحات على الجدار! وتركوا لوحة السيدة العذراء وآية الكرسي على حالتهما! هل يسافر الدكتور إسحاق إلى رنا ويودعنا الليلة؟ وفجأة أخذ سيزر ينبحُ ويمشي خارج الصالون ثم يعود إليّ، وكأنه يحثّني على الخروج من الصالون، ربتت على رأسه وكدت أصطحبه إلى غُرفة الطعام، لكن فضولي كان الفائز فكشفت الغطاء عن لوحة مُغطاة فإذا بي أكتشف أنها مجرد مرآة قديمة، تراجع سيزر للوراء قليلًا وهو ينظر لي وينبح، فكشفت الغطاء عن لوحة صغيرة فرأيتها لامرأة من عصر ماضٍ، اشتد نُباح سيزر وهو يتراجع للخلف وكذلك صرخات الببغاء في البلكون بدونِ سبب واضحٍ! شيء ما جعَلني أحدِّق فيها، هل تشبه المرأة في أحلامي بعض الشيء؟! في هذه اللحظة شعرت أنني لست وحدي، وكأن ظلًّا التصقَ بي! حينها كان حازم يقفُ في غرفة الاستقبال ويقول:

- إسراء.. إحنا مستنيينك!

كأنه أفاقني من شعور عجيب استحوذ عليّ، دخلت معه غرفة الطعام ونظرات دكتور إسحاق المريبة تلاحقني، أنا حقًّا في انتظار ما سيقوله هذا الرجل الليلة.

بدأ الجميع في تناول الطعام مع خليط من الأحاديث الجانبية التي لا أسمع منها إلا همهمات، ثم هذه الأحاديث الجماعية التي لا تخلو من النميمة، هذه التفاهات شيء أساسي في هذه التجمعات، مثَّلت ببراعة إصغائي واهتمامي، لكني كُنت أنتظر حديث الرجل الكبير، كان يستمع إلى الجميع ولم يَغفُل عني لحظة! نظر إلى سيزر- الذي وقَف عند باب الغرفة يبدو خائفًا ينبح- وسأل خالد:

- محدش حطله أكل؟

نظر خالد لسيزر في حيرة وقال:

- أكله في البلكونة، مش عارف ماله مش عايز يدخُلها!

التفت دكتور إسحاق لي ونظر في قلقٍ وهو يحاول ابتلاع قطعة لحمٍ يمضغها، ثم قال وهو يضع السكين والشوكة جانبًا:

- أخبار التصوير في القصر إيه يا ولاد؟

قال رامي على الفور:

- كله تمام.. يعني يومين تلاتة كمان ويبقى خلصنا أول مكان.

نظر إليّ أونكل إسحاق قلقًا! قال خالد وهو ينظر إلى بترا:

- بيتهيألي يا جماعة لازم تعيدوا نظر في الموضوع ده، خاصة وإن اللي حصل معاكوا أول مرة مكنش طبيعي.

قال رامي:

- يعني هو أول يوم إسراء تعبت شوية صحيح لكن اليوم النهارده عدّى زي الفُل ماله؟

نظرت ماريز لخالد بفضولٍ وقالت:

- أنا سمعت عن اللي حصل، هو بصراحة القصر مكان طاقته غريبة شوية.

نظر والد رامي إلى ماريز وقال:

- كل مكان في العالم له طاقة لوحده زي البني آدمين كده، الطاقة دي بتتشكل بتاريخ المكان، الناس اللي عاشت فيه والأحداث، وده بيخلينا ندخل أماكن نرتاح فيها وأماكن قلبنا يتقبض منها، أنا رأيي تهتموا أكتر بعِمارة القصر من برّه؛ لأن التماثيل اللي بتحاوطه ومنظر القصر من بره مُبهر أكتر من جوّه؛ لأنه بقى فاضي مفيهوش موبيليا.

سألته:

- صحيح يا أونكل.. فين موبيليا القصر ده؟

- اتباعت في مزاد علني سنة ١٩٥٤ وبقيت متوزعة عند عائلات من جنسيات مختلفة.

قال رامي بسخرية مُتوارية لأبيه:

- واحنا صغيرين كنت بتحكيلنا حواديت عن القصر علشان نخاف وننام بدري، مش معقول دلوقتي لسه هنقول القصر عايز ومش عايز والطاقة والأرواح اللي فيه والكلام ده!

حينها انتفض سيزر ونبَح نُباحًا عاليًا وخرج من الغُرفة، خرجت لأُحضره فوجدته يقف عند باب الشقة يريد أن يخرج! حاولت أن آخذه إلى البلكونة ليأكل لكنه بدا مذعورًا! وسمعت صراخ الببغاء عاليًا يأتي من البلكون!

عدت إلى غرفة الطعام لأسأل خالد عما حدَث لسيزر فوجدت الغرفة قد تبدَّلت إلى غرفة الطعام بقصر البارون! وباتت كل الكراسي خالية واختفى الجميع! ورأيت دكتور إسحاق يقترب منِّي واقفًا بغيرِ

كرسي متحرك ويُمسك برأسي بقوة وينظر في عيني ويصرخ:

- مش هتعرفي تعملي حاجة.. ومش هسيبك المرة دي!

صرخت حينها ولم أذرِ بشيءٍ.

***

أفقت من غفوتي ونظرت حولي في ذهول فرأيتني مُستلقية على الكنبة في بيتي، والصداع يكاد يفتك برأسي، ورأيت حازم ينظر إليّ في شفقة وقال:

- ألف سلامة عليكي يا حبيبتي.

- إيه اللي حصل؟

- أغمي عليكي وخالد قال شوية إرهاق، والأحسن نعمل شوية تحاليل نطمّن، أنا مش عارف إيه اللي بيحصَلّك الأيام دي؟

قبّل حازم جبيني وقال وكأنه يُلقي نكتة:

- أنا حضرتلك الحمام زي الأفلام، هعمل كام تليفون وأحضرلك حاجة تاكليها على ما تاخدي دش.

تركت حازم ودخلت الحمام لأستحمّ، أردت الاسترخاء لبضع دقائق، في المرآة رأيت الهالات السوداء تغزو وجهي بقوة، إنني أبدو مرهقة كجندي مهزوم وصل لتوّه من الحرب، ماذا حدث لي؟ لا بد أن أهتمّ بنفسي أكثر، متى انتهت دعوة دكتور إسحاق؟ وكيف وصَلت إلى هنا؟ لا أتذكّر شيئًا إلا حلمًا سخيفًا عن الدكتور إسحاق ..

والقصر! القصر مرة أخرى؟!

بدأت أخلع ملابسي، لقد أشعل حازم شمعة برائحة اللافندر هدّأتني في الحال، وترك الصنبور مفتوحًا لتتدفّق المياه بقوة داخل البانيو، استسلمت داخل الماء وأرخيت رأسي للوراء، ثم أدرت موسيقى هادئة على هاتفي المحمول، حينما امتلأ البانيو كانت رائحة الشمعة تفوح بقوة، أغمضت عيني وبدأت أشعر باسترخاء حقيقي، ليس فقط لجسدي وإنما لعقلي وأعصابي، أردت أن أنفض كل شيء بداخلي، وبقيت دقائق وحدي بداخل نفسي أنعم بصفاء لم أحصل عليه منذ سنوات، أسمع ما أحب وأشم ما أحب وأشعر بمياه تجدد خلايا جسدي وعقلي المُنهك، أفتح عيني لأسجّل هذه اللحظات في ذاكرتي ثم أغمضها من جديد.

بعد دقائق شعرت بهواء بارد في الحمام، تعجّبت لأننا في فصل الصيف وهواء التكييف بالخارج لا يصل إلى الحمام! وتبدّلت رائحة اللافندر برائحة سجائر لم أشتَمها من قبل، فتحت عيني ولم أرَ شيئًا.. ظلام دامس، هل انقطعت الكهرباء؟ مددت يدي إلى الهاتف فرأيته يُغلق، لقد أتيت على ما تبقّى في البطارية، وهنا هممت أن أغادر الحمام لكني رأيت شموعًا تُضاء من تِلقاء نفسها على رخامة الحمام! إنه الشمعدان الذي أعجبني عند الدكتور إسحاق ! ورأيتها تقف أمام المرآة وتنظر لي من خلالها على ضوء الشموع، إنها هي المرأة التي تبعثُها في سرداب أحلامي! بفستانها الأحمر القديم الطراز وقبعتها السوداء وسيجارها المُشتعل، لا بد أنني أحلُم الآن.

ظلت تنظر إليّ عبر المرآة وتبتسم في ودٍّ، بدأت أبحث عن

مِنشفة لأخرج بها من المياه، تسمَّرت في مكاني حينما التفتت إليَّ وكأنها تقرأ أفكاري، بدت حركتها بطيئة هذه المرة ونظراتها جامدة، استجمعتُ شجاعتي وقرَّرتُ أن أخرج من هذا الحُلم بأن أصيح لعل حازم يسمعني ويوقظني.

- حااااااازم... حاااازم.

لكن حازم لا يُجيبني، أسمعه يتحدَّث ويضحك بالخارج! هل هذا يعني أنني لا أحلُم؟ أخذت السيدة تقترب مني بخطوات ثابتة، وتنفُث دخان سيجارها للأعلى كما كانت في الحلم! تجمَّدت وانكمشتُ في مكاني، لكنها عندما اقتربت وأصبحت أمامي مباشرة شعرت أنها تسيطر علي، فلا أستطيع الهروب بجسدي ولا يستطيع لساني الصُّراخ! كنتُ في مكاني عاجزة تمامًا، نفثت دخانها هذه المرة في وجهي، ثم أدخلت ساقها اليمنى في الماء وشعرت ببرودة الثلج تسري في أطرافي، ثم أدخلت ساقها اليسرى وجلست أمامي في الماء، وفي هذه المرحلة فقدتُ إرادتي الحرة وأصبحت تحت تأثير قوة خارجية، وبدأت أقلِّد حركاتها رغمًا عني، ترفع يدها اليمنى فأفعل مثلها، تُخرج لسانها فأفعل مثلها، تقترب مني وتنظر نظرات شيطانية وتضحك، بقيت هكذا لبُرهة من الوقت لا أعلم مداها، كانت تختبِرني فلما تأكدت من طاعتي وانكساري، وقفت داخل البانيو وظلت تضرب رأسها في الحائط، وفعلت مثلها تمامًا، لم أملك حق التوقف عن هذه الأفعال وهي تراقبني وتضحك، أنقذني حازم عندما لاحظ أنني بقيت أكثر من ساعتين بداخل الحمام، يُناديني ولا أجيبُه، فتح باب الحمام ليراني أقف داخل المياه أضرب رأسي في الحائط

والدم يسيل من رأسي مرورًا بالحائط إلى المياه، أصابه الذعر لما رآني أستحم بدمي حيث تحوَّل لون المياه إلى اللون الأحمر، وأنا لا أتوقف عن ضرب رأسي!

ورأيته يلف جسدي المرتعش بمئزرٍ ويضمني إليه وهو يتفحص رأسي، ثم حملني إلى غرفة النوم ودفأني، وسمعته يتحدث مذعورًا:

- إلحقني يا رامي، هات شافعي بسرعة وتعاله.

رامي إسحاق

يقول خالد الشافعي: إن إسراء ربما أصابتها لَوْثَة عقلية؛ إذ إن كل فحوصاتها الطبية تؤكد سلامتها، ولعدم ثقتي فيه أشك فيما يقول، ربما تعاني من عرَض معين لكن التشخيص المبكّر هام للغاية؛ لذلك نصحته بعدم التأخر في عرضها على متخصص، وتوقفنا عن العمل تعاطفًا مع حازم لعدَّة أيام إلى أن تعافت إسراء، لكن حازم لم يتعافَ نفسيًا من آثار ما رآه، يقول إنه لم يرَ زوجته بهذه الحالة قط، ويُراوده هاجس أن كلّ ما حدثَ لها بسبب القصر! ومع ذلك سيصطحبُها معه للتصوير خشية تركها وحيدة خاصة بعد حادثة الحمام المُريبة، مسكين حازم لا زال تحت سيطرة حكايات الطفولة.

ولكل هذه الأسباب وافقتُ أن يحضر خالد معنا التصوير اليوم، قُمت من سريري إلى الحمام في وقت متأخرٍ، كان هناك عدد كبير من المكالمات الفائتة من رنا، هاتفتُها؛ لأنها لن تيأس أبدًا حتى تطمئن على دكتور إسحاق، فهي تهاتفه يوميًا لكنه لا يعطيها تفاصيل يومية، وهذا يُثير شكوكها حول صحته؛ لذلك أطمئنها بشكل دوري مُسبق قبل أن تسأل هي.

كانت أم رحمة تنهي أعمال تنظيف البيت وصباح تعدُّ الشاي لدكتور إسحاق الذي يقضي صباحه ومساءه يتأمل القصر كل يوم، علت ضحكة صباح آتية من المطبخ مع صوت فوران غلاية المياه، قادني الفضول إلى المطبخ فسمعتها تقول "متخلينيش أتجنن وآجي معاك إنت وحشتني"، وسمعت صوت الماء يُسكب في الكوب ثم صوت

دوران الملعقة في الكوب، غادرت إلى الحمام وأم رحمة تراني من بعيدٍ وتصيح: "أجيبلك حاجة يا أستاذ رامي؟"، أردفتُ وأنا أصطنع النُّعاس:

- لا شكرًا.

خرَجت صباح من المطبخ وقد بدَت منتعشة تحمل صينية عليها الشاي والأدوية وتقول:

- دكتور إسحاق كان قالي أبلغلك إنه عايز يشوفك قبل ما تنزل.

أومأتُ موافقًا وذهَبت لأستعدّ فاليوم نعاود التصوير من جديد، بعد دقائق كُنت أتأهب للمغادرة لكني لا بد وأن أعلم ماذا يريدُ الدكتور إسحاق، أخَذت موديل "الميتافيرس" وذهبت إلى البلكون وكان يُداعب "سكر" ويحتسي الشاي، بدَا مُرهقًا وابتسم لي وقال:

- أهلا يا رامي.. أُقعُد.. أكلت؟

- لا أنا تمام.. هنصوَّر كل يوم بعد مواعيد عمل القصر فيدوب ألحق، حضرتك كنت عايزني؟

ترك كوب الشاي ونظر إلى القصر وقال:

- أنا عارف إنك مش مصدق في حكايات القصر، صحيح فيه خرافات كتير، لكن في وسط الخرافات فيه حاجات صح، مفيش دخان من غير نار، خُد بالك إنتَ هتصور أماكن أثرية كتير، إقرَأ تاريخها كويس قبل التصوير، حتى الروايات الشعبية مهمة.

عقدت ذراعي وابتسمت بلا مبالاة فأكمل دون انتظار ردي وقال:

- عمومًا يابني ربنا يوفَّقك، أنا مستني مشروعك يظهر للنور ويملى البلد كلها، هكون أول واحد يستخدمه ويفتخر بيك.

تعجَّبت وشيء بداخلي يفتقد حنانَ الأب الذي حُرمت منه لسنوات طويلة، بدَا ضعيفًا أمامي وهو يقول:

- عارف.. ممكن يكون الكلام متأخر بالنسبة لَك، مش في محله، كان لازم يكون قبل عشرين سنة، لكن معلش، الحاجة لما تيجي متأخرة أحسن من لو مجتش خالص، اللي عايز أقولهولك إني هنا علشانك، وإنك أغلى إنسان عندي في الدنيا، وأي مساعدة تحتاجها هتلاقيني.

امتلأت عيني بدموعٍ تأبى أن يَراها، كان عليّ أن أُقبِّل جَبينه وأحتضِنه لكن كِبريائي منعني، نظرت إلى عينَيه طويلًا فرأيث فيهما الحبّ والندم، كان لا بد أن أُدير دفَّة الحوار فقلت:

- ممكن أسأل ليه خَلِّيت خالد يغطِّي الصالون والمرايات؟ ولو أنا عندك مهم قوي كده ليه هو اللي يساعدك مش أنا؟

ابتسم ابتسامةً واسعة وقال:

- غطِّيته علشان كفاية عليه كده ناوي أبيعه ده صالون أنتيك، التراب بهدله، أما خالد فهو على مدار سنين كان شبه عايش معايا هنا وبيراعيني، وهو مصدّق في اللي أنا مصدّق فيه، بخاف أتكلم معاك تستهزئ بيّا.

أردفت بسرعة:

- مقدرش أعمل كده، لكن مستغرب من عقلية جرّاح كبير يصدَّق في أرواح وخُرافات! معقول القصر تاني؟!

انكمشت ابتسامته وهو يُقاطعني:

- بكرة تِفهَم.

صاح الببغاء بغتة "كلير.. I miss you" ودخلت صباح قائلة:

- الله يرحمها ويِحْسِن إليها.

أعطتني كوب قهوتي فحمِدت الله على مقاطعتها لنا، تركته ومشاعري تفيض بالحبّ والغضب، بالأمل والألم والحسرة، أردت أن أرتمي في أحضانه لكن ذكريات قسوته حالت بيننا، غادرت البيت مترجلًا إلى القصر وعقلي وقلبي يتصارعان بقوةٍ.

***

في حديقة القصر كان طاقَم العمل يحتسون قهوتَهم وينتظرون رحيل زائري القصر حتى آخرهم، حضر نزار بدون مساعدٍ بعد أن وبّخته على فِعلته في أول يوم تصوير، ومع ذلك أعتقد أنه لم ينتهِ عن تعاطي المخدّرات ولا أعلم لماذا عاد إليها بعد كل هذه السنوات! غلب على عينيه اللون الأحمر، وظلّ يفرك أنفه بينَ الحين والآخر بلا داعٍ، ورأيت بصرَه زائغًا وهو ينظر إلى القصر ثم إليّ، ومع ذلك أعطيتُه نظارة الميتافيرس؛ لأنني أدوِّن ملاحظاتي عن التصوير، اقترب مني وقال بنبرة عجيبة:

- كلام أبوك النهارده كله حقيقي.

أصابني الذهول من كلماته، أردفتُ حذرًا:

- عرفت إزاي كلام أبويا؟!

لم يُجبْني وتركني وذهب لإسراء يهمِس في أذنها ثم نظرا إليَّ مبتسمين! لم يترك لي فرصة الإصرار على معرفة إجابة سؤالي، كان حازم يُراقب إسراء قلقًا ولم يفهم لماذا يهمس نزار في أذنها!

وقف مساعد حازم الجديد في حماس ينظر إلى القصر منبهرًا، ويفتح حقائب مُعدّات التصوير، بينما كانت إسراء تبدو مرهقة وغير متزنة وترتدي ملابس قديمة على غير عادتها! وقد فقدت وزنًا كافيًا لتبدو نحيفة جدًّا، كانت بترا بكامل أناقتها بجانبي تتحدَّث بدلالٍ وتيسِّر كل الإجراءات، إنها تُلاحقني في كل تطبيقات الهاتف، ترسل رسائل وفيديوهات وكأنها تُسخِّر وقتها كله من أجلي، نظرت إلى بوابة القصر وقالت:

- خالد وماريز وصلوا.

أردت أن أتمالكَ أعصابي وتذكرت كلمات رنا في الساحل "الدنيا كلها اتغيرت" لأهدأ قليلًا، التفت ببرود مُصطنع إليهما وقالت بترا:

- يعني يا ست ماريز كلنا مش عاجبينك؟ خالد بس اللي عرف يقنعك تحضري التصوير؟

قالت ماريز بدلال أشعَل غضبي بداخلي:

- خالد شاطر أعمل إيه؟

ضحكوا وحاولت ألّا أُبدي اهتمامًا، نظرت لي ماريز بجدية وقالت:

- إزيك يا رامي.. بعتلك على الإيميل Marketing Campaign مبدئية، ممكن تبص عليها في أي وقت، النهارده هعمل Making لكواليس التصوير نشوّق الناس، ونخلي الناس تفكّر يا ترى ده ترويج لإيه؟ لفترة زمنية نحددها قبل اكتمال المشروع..

- جميل.. لو في أي ملحوظة هقولك.

تعاملنا باحترافية شديدة وكأننا لا نعرف بعضنا البعض، ورأيتها تقترب من خالد وتهمس في أذنه ويضحكان، وأنا أحاول أن أتحكّم في مشاعري، بعد بُرهة اقترب خالد مني وقال بصوتٍ خافت:

- إسراء شكلها تعبان على فكرة.

كانت إسراء تقف بجانب مساعد حازم تحتسي قهوتها، صامتة لا تتحدّث إلّا إلى نزار، أردفت:

- إيه.. هنوقف تصوير من قبل ما نبتدي؟

نظر لي بتعجُّب وقال:

- بقولك إيه يا رامي، أنا ساكت علشان خاطر دكتور إسحاق، ممكن تتكلم بأسلوب أحسن من كده معايا، أنا بقولك على إسراء علشان نخلّي بالنا عليها المرة دي، دي مرات صاحبك يا أخي.

لم أعلّق فاقترب أكثر وقال بنبرةٍ صادقة:

- يا رامي، إحنا مش أعداء، أنا عارف إنت مش طايقني ليه، خليني أقولهالك بصراحة يمكن ترتاح، أنا وماريز مفيش حاجة بينّا و..

قاطعته بسخرية:

- يا راجل.. ده بقَى علشان صباح متعرفش؟ صباح وماريز ومين كمان؟

قال بحدة:

- رامي.. ماريز لسه بتحبك.

التفت إليه وأنا أرجو أن أرى نظرة صادقة، ورأيتها لكن مشوبة بحزنٍ دفينٍ، وهذا لا يهم، المهم أني أُصدقه لأول مرة، أردفت:

- هي اللي قالتلك؟

نظر في عينيّ وابتسم بمرارة أراها، وربّت على كتفي وقال:

- مش محتاجة تقول، الموضوع واضح، هي عمّالة تغيظك من أول ما وصَلنا، هي خليتني أعدي عليها علشان تشوفنا سوا، الحب ملوش كتالوج ولا قانون.. القلوب بيد الله.

ابتسمت وقد نال الأمل من قلبي جزءًا كبيرًا، حينها قال حازم بصوت عالٍ:

- توكلنا على الله يا جماعة ياللا بينا، هنصور في الأوض النهارده.

أردفت حينها:

- حازم.. عايز أعيد تصوير حاجات بسيطة في الدور الأرضي مش هتاخد وقت.

وافق حازم ودخلنا جميعًا إلى البهو الرئيسي، وبدأت أراجع ما

تم تصويره معه وأبدي ملاحظاتي، لأن أسلوب التصوير المختلف سيجعل القصر في الميتافيرس حقيقيًا إلى أبعد الحدود، وبدأ مساعده في إضاءة المكان وحازم يتابعه ويلقي تعليماته، بالتوازي جلست إسراء بجانب نزار الذي بدَا وكأنه زائرًا مثلها! يُمسكان بموديل الميتافيرس الذي يتم تصنيعه ويتبادلان النظر فيه، وخالد بجانبها تحسبًا لأي حدَث غير مُتوقَّع، أمسكت ماريز هاتفها وسجَّلت فيديوهات متنوعة، أما بترا فلاصقني ظلها إلى أن طلبت منها العودة إلى مكتبها لحين الانتهاء من عملنا.

بعد إعادة تصوير ما طلبته في البهو، دخلنا يمينًا إلى حجرة الطعام ومنها إلى حجرة صغيرة متفرعة منها كانت غرفة مكتب للبارون، رفع مساعد حازم إبهامه في إشارة أن الإضاءة جاهزة، صاح حازم:

- أنا جاهز.. قولي بالظبط يا رامي عايز الـ Focus على إيه؟

بدأت أشرح له وجهة نظري في إبراز تفاصيل الجُدران والأسقف، في إشارة إليّ قبل ترميم القصر وبعده وعندها علا صوت إسراء ونزار يضحكان، التفت حازم إليهما في غضبٍ وقال:

- خير يا جماعة ما تضحكونا معاكم.

أعطى نزار نظارة الميتافيرس إلى إسراء وقال ببساطة:

- بنضحك على اللي هيحصل فيكم.

نظر إليّ حازم في غضب شديد وسط ذهولنا جميعًا، اقتربت من ماريز وسألتها:

- هو نزار ماله؟

تحرّجت وهي تنظر له بذهول وقالت:

- مش عارفة هو فِعلًا غريب.. كنت فاكرة كارول بتبالغ!

- هي كارول قالتلك حاجة؟

- بتقول إن بقاله فترة متغيَّر وعلى طول قاعد لوحده، وبتسمعه بيتكلم كتير وبتفتكر إن معاه تليفون لكن في يوم شافته بيكلم نفسه في المرايا!

تيقنت حينها من سيطرة المخدرات على نزار، أردفت بعصبية:

- طيب هكون صريح معاكي.. أنا قولتله قبل كده لو أخد اللي بيتعاطاه ده ميجيش.. أنا آسف يا ماريز بس إنتي أخته ولازم تعرفي، نزار رِجِع للزفت تاني، صاحبي وكل حاجة بس ده شُغل، بره الشغل نشوف هنعمل معاه إيه.

- عندك حق، تحب أروّحه؟

قامت إسراء ووقفت بجانب حازم وقد بدت على غير طبيعتها وهي تكتُم ضحكاتِها:

- أنا مليش دعوة بنزار أنا معاكم.

هنا شعرت أن نزار سيكون عبئًا علينا، وأنني لا بد وأن أفكِّر في أمر شراكتنا من جديد بعد أن أستشير حازم، نظرت أنا وحازم وماريز لبعضنا البعض ولم نفهم شيئًا، شعَرت بحازم يكظم غيظه وقد بدأ

التصوير في غرفة الطعام، وبدأ الليل في الإقبال، ثم دخلنا غرفة المكتب وقد انخرط حازم في التصوير ومساعده، ولاحظت سكون نزار وإسراء وخالد حينئذ حتى انهمكت في العمل وتناسيت أمرهم عن عمدٍ، إلى أن لامَست كتفي يد ماريز وأشارت لي بالخروج من المكتب بعد بُرهة، فمشيت معها حتى أصبحنا في البهو الرئيسي فأشارت إلى يسارنا، ورأيت إسراء تحملق في أعلى الحائط مشدوهة، التَفتُّ إلى ماريز فسألتها:

- الموضوع مش طبيعي، فين نزار وخالد؟

همست:

- نزار تعب وخالد راح يوصّله البيت.

وعندها انقطع النور، فساد ظلام حالك وسكون وصاح حازم.

- يادي الحظ!

ثم خرج ومساعده على ضوء هواتفهما، التفت فوجدتُ إسراء تقف بجانبي مباشرة ففزعت، قالت في مرحٍ:

- تيجوا نلعب لعبة؟

شعرت أن حازم قلق عليها فقال لها:

- إيه رأيك نروّح؟

حينها اختفت إسراء من أمامنا! نعم اختفت! وغُلِّقت أبواب القصر كلها علينا في الطابق الأرضي! لم أصدق ما أراه للحظات، ظننت أن

إسراء رتَّبت لعبة سخيفة! ساد الصمت بيننا وشعرت بماريز تقترب مني.

وبدأت أصوات متفرقة تصدر من الأبواب والنوافذ وخربشة أظافر على الحوائط وحتى الأسقف! وأصوات خطوات في كل مكانٍ حولنا! صوت امرأة تضحك وأخرى تبكي في آنٍ واحدٍ! وكأن الباكية تُعذَّب! لا يوجد مصدر محدد لصوتهما، الأصوات تأتي من كل اتجاه! ثم سمعنا صوت إسراء يأتي من حُجرة الصالون تبكي وتصرخ وكأنها تتحدَّث مع أحدٍ:

- هنفتحه هنفتحه.

ثم صرخت صرخة عظيمة وتوقف الصوت! استغرق الأمر دقيقتين مروا علينا كساعات حتى استوعبنا الأمر، على ضوء هواتفنا هرع حازم إلى مكان صوتها وحاول فتح الباب بكل الطرق دون جدوى، انكمش مساعد حازم في أحد الأركان وجلس على الأرض يتمتم بآيات قرآنية، كاد حازم أن يبكي، فصرخ مذعورًا:

- إيه اللي بيحصل هنا؟

لم أستطع إجابته؛ لأنني في حالة من التوهان، هل ما يحدُث حقيقي أم أنه لُعبة سخيفة على غرار برامج الكاميرا الخفية؟ وفجأة سمعنا صوت خطوات تهبط الدرج الخشبي فوجهنا إليه إضاءة الهاتف، ووجدنا نزار يهبط عليه فصاحت ماريز..

- نزار! مش خالد وصَّلك البيت؟ فين خالد؟

لم يُبدِ اهتمامًا، كانت نظراته شاردة وحادة غير موجَّهة لأحدٍ، وملامحه مختلفة كثيرًا، اقترب مني وقال:

- مش قولتلك كلام أبوك كلّه صح؟ خليك دايمًا رافض تعترف بالحقيقة، على فِكرة.. مفيش حد هيعرف يفك اللغز وأنا مش هسمح بده أصلًا!

أمسكت ماريز بذراعي وقد التصقت بي حتى شعَرت برجفتها وهمست:

- ده مش نزار!

نظرت إليه فلم أجده! لقد اختفى أيضًا!! أمسَك حازم برأسه يحاول أن يفهم، اتجه إلى باب القصر الرئيسي وحاول فتحه دون جدوًى، وبدأ يتصل بإسراء وهاتفها يرن ولا تجيبه، ثم بدأ يتصل بخالد وبترا وحتى نزار، إنهم يجيبون الهاتف لكنهم لا يسمعونه! هذه ليست لعبة سخيفة كما ظننت، إنها لعبة مُرعبة.

قالت ماريز بصوت خافت:

- معقول اللي بيتقال عن القصر صح؟

ذهب حازم إلى حيث يجلس مساعده وجلس بجانبه في يأس، حينها رأينا إسراء تقف على الدرج الخشبي تضحك وتقول..

- حلوة اللعبة؟ لسه مخلصتش!

حينها تذكرت هذا الصوت، لقد سمعته في طفولتي كثيرًا في بيتنا، هذا ليس صوت إسراء، إنه جسد إسراء فقط، وبدأت أحداث من

الطفولة تخطرُ على عقلي لم أفكر فيها أبدًا، صُعِق حازم وقد انتفض من مكانه، وقال بنبرة مرتعشة:

- إسراء! إزاي.. إزاي طلعتي؟!

ضحكت إسراء ضحكات متقطعة وأمسكت ماريز بذراعي بعفوية وشعرت بيدها ترتعش وهي تهمس قائلة:

- مش إسراء محبوسة في الصالون!

في هذه اللحظة سمعنا إسراء تصرخ بداخل غرفة الصالون وسمعناها تقول بوضوح: "حاضر.. حاضر.. هقولهم". ثم طرقت الباب من الداخل بعنفٍ وهي تبكي بصوت عالٍ وتستغيث بزوجها!

ماريز خياط

آخر شيء أتذكره هو جسدي الذي كان ينتفض، ولسبب لا أعلمه كان رامي بعد كل هذه السنوات والبعد والجفاء مصدرَ أمانٍ لي! التَصَقتُ به من شدة فزعي لما سمعت صوت صراخ إسراء بداخل غرفة الصالون، بعد رؤيتها تقف على الدرج الخشبي وتضع يدها في خصرها وتنظر إلينا مبتسمة بعيون ماجنة كلها تحدٍّ، وفي الظلام شعرت أنها تركِّز معي أنا، لا أعلم لماذا؟ شعرت حينها بالشفقة من أجلها ومن أجل ما يحدث معها، وهذا آخر شيء كان لي السيطرة عليه؛ لأنني بعد ذلك تركت رامي ومشيت نحوها كأنها تربطني من عُنقي بحبل غليظ، وسط هلع مساعد حازم وذهول حازم وصوت رامي الذي كاد أن يُصم أذني، كنت أمشي نحوها فاقدة الإرادة وأصعد الدَّرج بخطواتٍ ثابتة وعيناي لا تفارق عينيها، أرى لهما بريقًا يلمع في الظلام، اختفت ابتسامتها ومدّت يدها تنتظرني حتى أصعد إليها، حينها سمِعت صوت خطوات تجري ورائي ثم صوت ارتطام قوي مفاجئ، وسمعت حازم يقول:

- رامي.. رامي.. إنت كويس؟

ولم أسمعهم مرة أخرى، أمسكت إسراء بيدي عند بلوغي أول درجات السُّلَّم الخشبي، وأصبحنا وجهًا في مقابلة وجْهٍ، أمسكت خصلات شعري بحنان وأرجعتها إلى الوراء، ثم أمسكت برأسي بقوة وهي تنظر في عيني وتقول:

- النهارده هتنفذي اللي هقولك عليه بالحرف، الطريق لازم يتفتح

وبسرعة.

أومأت إليها بالموافقة وأنا لا أفهم شيئًا مما تقول. تركت رأسي وأشارت أن أتبعها، فعلت وكأنني أسيرة لا تملك لنفسها شيئًا، ظلت إسراء تمشي بسُرعة وتدخل الغرف وتخرج منها في سرعة كبيرة، وأنا أهرولُ خلفها ولا أكاد ألحق بها، كانت تضحك ضحكات ماجنة وأنا أنادي عليها دون جدوى، وكأننا في لُعبة، وفي أحد ممرات الطابق الأول كانت أمامي تمامًا وكدت أُمسك بها إلى أن انعطف الممر فانعطفت وراءه ولم أجدها!

كانت شهقتي أقرب إلى صرخة استفاقة وتسمّرت في مكاني، وبدأت أتلفّت حولي في ذعر وضحكاتها لا زالت تملأ المكان! وبدأتُ أنادي:

- إسراء... إنتي فين؟

وعندها سمعت صوت طرقات باب الصالون بالأسفل، تختلط بأصوات أنين رامي وهمهمات مساعد حازم المُرتعشة التي لم تتوقّف، مع محاولات حازم فتح الباب بلا يأسٍ ثم صوت الباب يُفتح، ثم صوت حازم يقول: "مفيش حدا!".

في هذه اللحظة لامسَت كتفِي يدٌ فتلفّت ورائي وقد بدأت أنفاسي تضيق وكأن الهواء ينفَد من القصر تدريجيًا، وبدأت دموعي تسيل دون توقف ودون أن أصدر صوتًا واحدًا، وفجأة سمعت صوت إسراء تغني بالإنجليزية لحنًا لم أسمعه في حياتي، وبدأت أبحث عنها وأنا بين خوفي عليها وخوفي منها.

حينها أُضيء الطابق الأول كله إضاءة مُختلفة عن إضاءة التصوير، ربما كانت إضاءة القصر القديمة، وظهر أناس ألوانهم مُختلطة يرتدون أزياء خدَم عتيقةً، كُل منهم يحمل صنوفًا كثيرة من الطعام ومختلف الشراب، وسمِعت صوت اللحن الذي تغنّيه إسراء يأتي من أغنية مُسجلة، إنه جرامافون قديم بالتأكيد فأنا لا أُخطئ صوته.

أخذت أعداد الخدَم تتزايد من حولي يذهبون ويأتون، وبدأت أمشي بينهم وأتفادى أن ألمس أحدهم، ولاحظت أن جميعهم ينظرون إليَّ في رهبة وحذَرٍ؛ البعض ينظر نظرات حيادية لا معنى لها، والأغلبية نظراتهم خائفة إلى حدٍّ بعيد، لكن جميعهم يُشيرون بإبهامهم إلى اتجاه واحدٍ وكأنهم يرشدونني!

سرتُ في الاتجاه وكان صوتَ الأغنية يقترب عند غرفةٍ بعينها، إنها غرفة البارون إمبان، دخلت الغرفةَ فرأيت سيدة ترتدي فستانًا أحمر ضيقًا؛ خصره ضيق جدًّا، وقبعة سوداء كبيرة أنيقة مائلة على عينيها، تجلس وتُمسك بِمروحة يدٍ ورقية بيدها وقد أحنت رقبتها للأسفل، لم أستطع أن أرى وجهها كاملًا، وفي إحدى زوايا الغرفة كان الجرامافون يدور على مهَل ليصدر صوت هذه الأغنية الحزينة، وبدأت أصوات أناس تتحدّث وتضحك بالأسفل وكأنها حفلة كبيرة! جفّفت دموعي وقاومت خوفي وأنا أقول:

- هو أنا بحلم ولا كل ده بجد؟

التفتتِ السيدة ببطء بعدَ أن وضَعت المِروحة جانبًا؛ كانت سيدة أرستقراطية، ملامحها أوروبية خالصة، انحنت للحظةٍ تلتقط شيئًا

من الأرض فوجَدته موديل نظارة "الميتافيرس" الخاص برامي!
نظرت من خلاله للحظات ثم التفتَت إليّ مرة أخرى وهي تَمُد إليّ يدها بالنظارة وتقول بلكنةٍ مختلفة:

- أدخُلي.. خايفة ليه؟

كان شعوري في هذه اللحظة لا يوصَف، إذ إنني بدأت أطمئن لها وفي نفس الوقت لا أعلم مَن هي وماذا تريد؟ وأين اختفت أصوات فريق العمل بالأسفل؟ بل أين اختفت إسراء؟

ابتسمت لي ويدها لا زالت مَمدودة، خطوت داخل الغُرفة وكنت في انتظار مفاجأة، لكن شيئًا لم يتغيَّر، اقترَبتُ منها بحذَرٍ ومددتُ يدِي آخذ النظارة بسرعة، أخذت السيدةُ مِروحتَها وبدَت هادئة، بشكل عفوي نظرتُ داخل نظارة "الميتافيرس" فإذا بي أرى صالونًا مُذهبًا عتيقًا وثمين القِيمة، والستائر تحيطه من كل الجوانب، تتوسَّطه مِنضدة خشبية وفوقها قطعة رخام منقوش.. قاطعني صوت السيدة بهدوء:

- صالون أنيق.

انتبهتُ إلى أننا لا زلنا في الغرفة التي يُعتقد أنها خاصة بالبارون!
أومأتُ موافقة دونَ فَهم ما تعنيه فأردفَتْ هي:

- ملَفتش نظرِك وِحْدة الأدراج اللي في النُّص بين الكنبة والكرسي؟

عاودتُ النظرَ في النظارة من جديد فرأيت أنتيك خشبي يحتوي على العديدِ من الأدراج، مررت بعيني مرة أخرى على الصالون، وكأنه

مألوفٌ! أين رأيتُه من قبلُ؟ لا أتذكَّر الآن، قاطعني صوتُها..

- أسرار البارون كانت كُلها هنا.

لم أفهم ما تَعنيه وفهِمت السيدةُ كل ما أريد قوله؛ فقالت في لهجة حادةٍ هذه المرة:

- من الغباء أن تفهموا أنكم بتصوروا القصر صدفة!

شعَرتُ برهبة لكني تشجّعت وقلت:

- إنتوا مش حقيقيين.. كل ده مش حقيقي.

ألقَت المِروحة الورقية على الأرض بعنفٍ، وهي تنهض من مكانها، ووجدتها في لحظة واحدة أمامي مباشرة وقد توقّفت الأغنية الصادرة عبر الجرامافون وبدأت إبرته في إصدار صوت صفير مزعج، تلاه صوت وش أخذ يعلو تدريجيًا حتى توقفت كل الأصوات بالأسفل والضحكات، حتى خطوات الخدم التي كنت أسمعها بوضوح، وفجأة سالت دماءٌ من أنفِها وفمِها وتبدَّلت ملامحها إلى ملامح الموتى، أمسكت السيدة برأسي بقوة وهي تنظر في عيني مباشرة وتقول بلهجة آمرة:

- إنتوا هنا علشان تنفِّذوا مِش تتناقشوا.. فاهمة؟

بدأت دموعي تسيل وأنا أرى وجهها يتحول إلى وجه إسراء من جديد! ثم خفَّتت حِدة نظراتها وبدت تائهة، وبدأت قبضةُ يدها تضعُف وتنفك عن رأسي، سالت دماء قاتمة اللون من أنفها وفمها بشكل غزير ثم أغلقت عينيها وفقدت وعيها فارتمت على الأرض

وعاد الظلام من جديد!

وسمِعت صوت طنط كلير تهمِس في أذني "متسيبيبش رامي لوحده يا ماريز"!

حينها انتباتني حالة من الصُّراخ الذي لم ينقطع!

حازم جمال

بعد بعد أن صعِدت ماريز للطابَق الأول حاول رامي اللحاق بها، لكن إسراء نظرت له فقط فسُحِب إلى الوراء بقوةٍ لم نرَها وارتطم بعنفٍ في الباب الرئيسي للقصر! نعم، رأيت هذا بعيني وأنا لا أُصدق ما رأيته إلى الآن، بكى مُساعدي حينها لكنه لم يجرؤ على مُساعدة رامي، أمسك رامي بركبتِه وصرَخ، هرعت إليه وحاولت الاطمئنان عليه، كان في صدمةٍ كبيرة خاصة أنه لم يُصدق يومًا في وجود الماورائيات، واستمر الطَّرق من داخل غرفة الصالون وسمعنا إسراء تبكي بداخلها، أشار لي رامي أن أتركه وأُحاول فتح الباب وإنقاذها.

بعد محاولات تمكَّنت من فتح باب غُرفة الصالون فلم أجد زوجتي بداخِلها وصحت "مفيش حدا!"، هنا أيقنت أن الروح التي بالقصر هي مَن تُصدر هذه الأصوات، ولكي تُشتتنا وتُضلِّلنا جاءت بصوت إسراء بداخل غرفة الصالون، لكن مَن هي؟ حينها أدركت أن مَن بالطابق الأول هي إسراء زوجتي، وأنها لا بد قد أصابها مسٌّ شيطاني، لكن لماذا إسراء بالتحديد؟ بعد لحظات من فتح الباب سمِعنا صراخ ماريز، قال رامي بنبرة حاسمة:

- ساعدني نطلع فوق على نور الموبايلات نجيب البنات.

في غرفة البارون كانت إسراء ترقُد على الأرض فاقدة الوعي تنزِف من فمها وأنفها، وأمامها ماريز تصرُخ بهيستيريا، كان رامي يحاولُ أن يحتوي ماريز ويهدِّئها، بينما أنا أحاول إفاقة إسراء بكل الطرق ولم أرَها مِن قبل تنزف بهذه الطريقة! وبعد استعادة وعيها كانت في

حالة صحية مزرية، لا بد مِن إجراء فحوصات طبية عاجلة، عندها هاتفت خالد فأجابني بنبرةٍ قلقة "إنتوا فين كل ده؟!"، أخبرته أن يسبقنا إلى البيت؛ لأن إسراء تحتاج مساعدة طبية فورية. وفَهِمتُ أننا كُنا محجوبين لأمرٍ ما داخل القصر، لكن ما هو؟

في البيت لم تتذكر إسراء أي شيء مما قالته ماريز، وبعد أن نامت أخيرًا جلستُ ورامي وماريز مع خالد نروي له كل ما حدَث، أقسَم خالد أنه أوصل نزار إلى منزله بعد أن ارتفعت حرارته واشتد تعبه أثناء التصوير، وأن نزار لم يكن بالقصر أبدًا، قال خالد إنه عاد إلينا فوجد القصر مُغلقًا وتصوَّر أننا أنهينا عملنا وانصرفنا، وأنه استقبل مكالماتنا وفي كل مرة يسمع صفيرًا يصكُّ أذنه، فعاود هو الاتصال بنا مِرارًا وكأننا منعزلون في مكان ناءٍ لا يوجد به اتصال! وأن بترا هاتفته لتسأله عنا جميعًا! إذ إنها كانت مُتعجبة لرحيلنا بعد التصوير دون المرور عليها أو حتى إبلاغها! لكنه لفت نظرنا إلى شيء هام للغاية، غرفة الصالون التي رأتها ماريز تتطابق بشكلٍ كبير مع غرفة الصالون في بيت دكتور إسحاق! والذي ساعده خالد في تغطيته! هل لنا أن نتأكد من هذا؟ كان رامي في حالة من التردُّد والحيرة والشك، هل يتخلَّى عن مُعتقداته في أول جولة؟ كان رامي يسخر من خوفي من القصر في طفولتنا، لكن هل خرافات القصر حقيقة؟ وما سِر كل ما حدث معنا؟ لم نجد تفسيرًا شافِيًا لعقولنا.

تطوَّع رامي بتوصيل ماريز فوافقت على الفور، وجلس خالد لدقائق يفكِّر معي ويتعجب من رواياتنا، لكنه قال إنه قرأ منذ فترة بعيدة أن البارون إمبان كان يمتلك خزانة أوراق عبارة عن مجموعة

أدراج خشبية قيِّمة، وأنه كان يضعُ بها كل الوثائق والأوراق الهامة لديه، ومن الغريب أيضًا تطابق هذا مع ما يمتلكه دكتور إسحاق في غُرفة الصالون أيضًا! وعندما بحث عنها وجد صورتها بسهولة وإن كانت غير واضحة.

كان حديثه مُلفتًا ومنطقيًا، ربما إذا توصلنا إلى تفسير عند دكتور إسحاق انفك المَس الشيطاني الذي حلَّ بزوجتي، أحمد الله على بقاء الأولاد عند خالتهم في الساحل إلى الآن، فلا أريدهم أن يروا أمهم في هذه الحالة أبدًا، بينما يتحدّث خالد جاءتني رسالة من مساعدي الجديد يعتذر عن العمل معي، هذا شيء متوقَّع، لكنه سينسج سُمعة سيئة للغاية في الوسط الفني، فهذا المساعد الثاني الذي يتركني في وقتٍ قصيرٍ، تأخر الوقت وتركني خالد وحيدًا مع كمٍّ من الأسئلة والذهول يكفي لإصابتي بالقلق لأسابيع، دخلت الحمام لأُزيل تعب اليوم الطويل الذي كان من المُفترض أن يكون قصيرًا، وقفت تحت الماء لفترة غير قصيرة، ثم خلدت إلى النوم بجانب إسراء التي كانت في شِبه إغماءة.

بقيت أتقلّب في الفِراش لا أستطيع أن أكفَّ تفكيري عمّا قاله خالد، تذكّرت أن إسراء لاحظت تغطية الصالون كله أيضًا، لكن كل هذا في النهاية مجرد تخمين، قد يكون وصف ماريز غير دقيق لما رأته، لعلها تهذِي من الأساس، إنه مجرد ربط لأحداث غير مترابطة ببعضها، لكن هل سأكمل تصوير القصر؟ أم نصور باقي الأماكن الأثرية ونتجنَّب القصر؟ وهل ستُشفى إسراء بشكلٍ كامل إذا ما تركت تصوير القصر أم أنني صرت مسئولًا بشكل غير مباشر عما حدَث لها؟ نظرت في

هاتفي فوجدت الساعة الثالثة فجرًا، إن مخّي يُلاعبني لُعبة سخيفة، سآخذ قرصًا منومًا لأنني لا بد أن أستريح، قُمت إلى الحمام حيث تضع إسراء جميع الأدوية في صيدلية صغيرة مُتوارية عن أيدي الأولاد، تأكدت أن إسراء تتنفّس لأنها لا تشعر بشيء على الإطلاق، ومع ذلك توخّيت الحذَر لكي لا أزعجها ولم أُضئ نور الغرفة، عند اقترابي من الحمام في مقابلة الغرفة كان بابه مُواربًا وتذكّرت أنني نسيت نوره مُضاء، وسمعت صوت إسراء تُنادي بوهَنٍ باسمي فرجعت غرفة النوم في الحال، أضأت الغرفة لكن إسراء كانت على حالها مُستغرقة في النوم لا تتحرّك، لا بد أنها تَحلُم.

أغلقت النور وذهبت إلى الحمام مرة أخرى، وعندما فتحت الباب كانت إسراء تقف أمام المرآة تنظر إلى نفسها وهي تُدخّن سيجار وتبتسِم! ترتدي فستانًا أحمرَ ضيقًا وقبعة سوداء وحذاء أسود كعبه عالٍ، أزياء تعودُ لقرنٍ مضَى! تسمَّرت في مكاني وأنا أنظُر إليها واجمًا! هي ليست ظِلًا ولا خيالًا إنها حقيقية تمامًا، التفتَت إليّ واتسعت ابتسامتُها، وعيناها تغوياني، بدت نضِرة البشرَة، رائعة القوام وبصحة جيدة! شعَرت بحنينٍ نحوها، اقتربت منّي أكثر وشممت رائحة عطرة تفوح منها، داعبَت وجهي بيدها وقالت بنبرة حنونة:

- إنت خايف التصوير والمشروع يفشلوا؟

أومأتُ لها بالإيجاب وشعرت أنني تحت سيطرتِها فقالت وهي تُمسِك بيدي:

- الفشل خُطوة بتسبق النجاح، الخوف من الفشل مجرد تابوت في

دماغك.

أجبتها بغير إراداتي:

- لكن إحنا التزمنا بمواعيد واختارنا البارون نبدأ بيه المشروع.

قاطعتني بصوت واثقٍ:

- كلنا عندنا حرية الاختيار، وكُلنا بندفع تمن اختيارنا.

حينها سمِعت صوت إسراء قادمًا من الغرفة تتأوَّه! نظَرت خلفي باتجاه غرفة النوم وشعَرت بأطرافي تتجمَّد، وبدأت قطرات عرَقٍ تسيلُ على جبهتي بغزارةٍ بينما إسراء أمامي تقترب مني، تنفث دخان سيجارتها في وجهي وتقول بهدوء:

- اللي بتفكر فيه ده هيرجعنا خطوات ورا، مش صدفة إن رامي يرجع مصر، ولا صدفة إنكم تصوروا القصر.. مفيش حاجة اسمها صدفة في الكون.

شعرت بأنفاسي تتوقَّف وبدأت أُذكِّر نفسي أن إسراء نائمة، وكأنني كنت مُخدرًا لدقائق! هذه ليست زوجتي، لكن لماذا اختارتها هي لتتشكَّل بها؟ ضحِكت وكأنّها تقرأ أفكاري وأكمَلَت:

- تصوير القصر لازم يكمَل، والأوضة لازم تتفتِح، لو عايز مراتك ترجعلك زي ما كانت لازم تِنفِّذ اللي بقولَّك عليه.

حينها سمِعت صرخات إسراء تأتي بوضوحٍ من غرفة النوم وعلَت ضحكات المرأة أمامي، وبالتوازي اختلط الصُّراخ بالضحك وبثَّ في حالةٍ لم أكن لأتخيلها في يوم من الأيام! بعد ثوانٍ من الحيرة

والذهول هرعت إلى إسراء في غرفة النوم، أضأتُ النورَ فوجدتها تصرخ كأنها تختنق وتشيرُ باتجاه الحمّام، استطعت تهدئتها قَدْر استطاعتي، أخذتُ كوب المياه بجانبها، شرِبت جرعة من الماء ويدها ترتعش والماء يقعُ من جانبي فمها، ثم نظرت إلى خارج الغرفة وقالت:

- الأوضة اللي عايزاها تتفتح تحت الأرض.. لازم تتفتح.

نظرتُ خارج الغرفة باتجاه الحمّام فوجدت بابه يُغلق بعنفٍ والنور يُطفأ!

لقد انتقلَت لعنة القصر إلى بيتي وتمكّنت من زوجتي وصارت تأمرني!

تُرى، هل تساعدني بترا في فكّ اللغز؟

بترا صادق

عندما هاتفني حازم في الصباح الباكر أسِفت لما حدَث معه ومع إسراء في بيتهما، يظن حازم أنني أعلم حقيقة سر القصر، في حين لم تكن عندي إجابات وافية لأسئلته التي طالما حيرتني أنا أيضًا، لكن ومن أجل إسراء صديقة الدراسة لن أتوانى عن المساعدة إذا استطعت.

اتفقنا أن نتقابل عند رامي، ارتديتُ فستاني الأزرق الجديد وتزيَّنت كما يحب رامي، أو كما أعتقد أنه يحبُّ، على طريقة ماريز البسيطة في التزين والتي لا أُفضلها، لاحظت أن غيرتي منها مؤخرًا بدأت تسيطر على عقلي وأفعالي؛ لذلك لا بد أن أُعزز ثقتي بنفسي جيدًا.

تعمّدت أن أصل مُبكرًا عن الميعاد، ركنت سيارتي بجانب القصر ورأيت دكتور إسحاق وخالد ورامي في البلكون، أتمنى أن أمضي وقتًا أطول مع رامي اليوم، كما أتمنى ألّا تحضُر ماريز من الأساس، صعدت ووقفت أمام الباب وأنا أتوقُ لأن ينظُر إليَّ رامي كما أستحق، فتحَت صباح الباب ورمقتني بنظرة نسائية تفهم كل شيء، رحّبت بي وجلست في غرفة الاستقبال، لم تمر دقيقتان حتى أتى رامي من البلكون مستندًا على عُكاز بيده اليمنى وفي يده اليسرى نظارة "ميتافيرس"، وقد أحاطت ساقه أسفل الركبة جبيرة طبية، حيّاني بحرارة لم أعْتَدها منه وقال:

- إيه الحلاوة دي.. عاملة إيه؟

- ميرسي.. ألف سلامة عليك.

- بسيطة الحمد لله.

نظرت إلى نظارة "الميتافيرس" بيده فبدَت مختلفة كثيرًا وسألته:

- خلاص كده بدأت إنتاج؟

قال بجدية:

- بعمل تعديلات بسيطة، كل يوم المنافسة في السوق بتبقى أشرس، التحدّي إن التعديلات تواكب التطور اللي بره وفي نفس الوقت منتأخرش أكتر من كده، قلقان من المشروع كله بسبب التصوير.

- كله هيخلص زي ما انت عايز في تصوير القصر.. أوعدك.

قلتها بثقة وحماس، وأنا أنظر في عينيه بسعادة، وللحظات تناسيت سبب زيارتي وكل ما حدَث، نظر في عيني جيدًا وابتسم وهو يصطحبني إلى البلكون، بعد سلامي على دكتور إسحاق الذي بدا في حالة صحية سيئة، وخالد الذي رد سلامي بكلمات مُقتضبة ولم يتحدّث جملة واحدة، جاءت صباح وقالت باقتضاب أن عليها أن تبتاعَ بعض الأشياء للبيت ثم غادرت، الجميع في حالة كآبة واضحة، وفقدت الأمل أن أنفرِدَ برامي، كنت أنتظر معجزة، إلى أن قال دكتور إسحاق لرامي:

- عندنا ليمون؟

قام خالد من مكانه ووجدتها فرصتي فقمت وتصرفت بحميمية قائلة:

- خليك يا خالد.. أنا هعمل لأونكل الليمون وبالمرة أعمل قهوة، حد عايز حاجة تاني؟

قال خالد وهو ينظر إليّ بخبثٍ وكأنه يقرأني:

- يا ريت لو شاي يا بترا لو سمحتي.

حينها قام رامي:

- تعالي.. مِش هتعرفي أماكن الحاجة في المطبخ.

أخذ دكتور إسحاق نظارة "الميتافيرس" من رامي وأخذ يقلب فيها بفضول، كُنت سعيدة لمجرد ذهابنا منفردين ولو إلى المطبخ لنعد المشروبات ودار برأسي فيضٌ من الكلمات، كان رامي لطيفًا معي لكن عقله مشغول جدًّا بينما نُعد المشروبات سويًا قال:

- إنتي عارفة إني ساعات ببقَى مِش مصدّق اللي حصل في القصر؟ رغم أني شفته بعيني؟

ساد الصمت للحظات وسألته:

- إنت مؤمن بعالم الجن والأرواح والسحر والـ..

قاطعني وقال:

- كل حاجة من دول مختلفة عن التانية، أنا مؤمن باللي بشوفه، أنا عقلي كله حسابات ومعادلات وبرامج، وده كله متناقض مع كل اللي احنا شوفناه.

اقتربث منه وقلت بودٍّ:

- مش كل حاجة في الدنيا خاضعة لقوانين وأسباب وحسابات، فيه حاجات كتير ملهاش تفسير، زي مثلًا الحب.

سمعنا صوت جرس الباب، لكن رامي تجاهله وقد لمَعت عيناه فأكملتُ:

- إيه تفسير أننا نتشد لشخص مُعين في وسط ناس كتير حوالينا؟ ليه الشخص ده بالذات؟ وازاي الحب بيغير فينا حاجات كتير؟ ونقول: عمري ما كنت أتخيل إني أعمل كذا أو أتنازل عن كذا علشان أبقى معاه.

فهم رامي ما أعنيه ثم نظر خلفي نحو الباب وسمِعت صوت خالد كطلقة نارية بها كثير من السخرية وقال:

- بس الحياة عمرها ما كانت كاملة.. لازم يبقى فيها نقص ونعالجه إحنا بالرضا.

لقد سمع خالد ما قلته، التفتُّ إليهِ وأنا أكظِم غَيظِي فابتسم وقال وهو يقترب مني:

- على فكرة ماريز جت.. وحازم وإسراء كمان.

رمقته شذرًا وابتسم رامي وهو يُنهي إعداد المشروبات، وحينها دخلت ماريز وملأ عطرُها المكان واتسعت ابتسامة خالد أكثر لا أعلم لماذا! وقَفِت للحظاتٍ وكأنها تتفحصنا ثم تجاهلتني وكأنها لا تراني وسلّمت على رامي بودٍّ شديدٍ ووجمتُ لما رأيت نظرات رامي لها، ثم التفتَت إليّ وهي تهذِّب خصلات شعرها وكأنها تفاجأت وسلّمت

عليّ ببرودٍ وتعالٍ! حينها شعَرت بغُصة لم أشعُر بها من قبل، وأقسمت أن أفعل شيئًا وإن كنتُ لا أدري ما هو الآن، إنها تأخذه مني بسهولة، بمجردِ أن تظهر، حاولت أن أتجاهل شعوري وخرجتُ من المطبخ وقد حمَل رامي المشروبات ووجدنا أن دكتور إسحاق انتقل إلى غرفة المكتب فلحِقْنا به.

خلف مكتبه كان يرمقنا الدكتور إسحاق بنظرات قصيرة، جلست إسراء عن يمينه ساهمة تنظر أمامها ولا تتحدّث، وجلس حازم أمامها عن يسار دكتور إسحاق، بينما جلس رامي بيني وبين ماريز على الكنبة الجلدية أمام دكتور إسحاق وبجانبي خالد.

طلب دكتور إسحاق أن يسمع تفاصيل ما حدَث في القصر من كلٍّ واحد منّا على حِدة، بعد أن فعلنا بدا مغتمًّا ونظر إليّ وقال بجدية:

- إنتي قولتي لرامي قبل كِده إن القصر مفيهوش حاجة، وإنه يكمِّل تصوير عادي جدًّا! النهارده الكل تضرر مفيش حد سِلِم في التصوير، شوفي نزار فين.. على طول عيان! عايزك تكوني صادقة قُدام ربنا.. الكلام ده صحيح؟

هابني ما قاله وقرّرت أن أتكلم:

- أنا مكنتش متخيلة إن كل ده يحصل، قولت تصوير يومين ويعدوا، لكن واضح إن الموضوع كان مِترتِّب بشكل ما، القصر عُمره ما كان عادي، من أول ما اشتغلت فيه وأنا بشوف ناس وبسمع حاجات، صوت ست بتصرخ وبعدين صوت حاجة بتقع، صوت عفش بيتجر من مكانه، وبالذات باليل، صوت الموسيقى اللي بتشتغل

وتقف لوحدها، في الأول كنت فاكرة إني لوحدي لكن بعد كده عرفت إن كل اللي اشتغل في القصر شاف أو سمع حاجة على الأقل، القصر حواليه كلام كتير، إيه الحقيقي وإيه الخرافة؟ حقيقي معرفش، وفي منصبي ده مينفعش أروِّج إشاعات! أبقَى كِده بقول للناس محدِّش يزور القصر! لمصلحة مين؟ خاصة وأن مفيش حد من الزوار قبل كده اشتكى، لكن الأهم إيه تفسير اللي حصل معاكم حقيقي معرفش!

أنهيت كلماتي ونظرت إليهم فكانوا جميعًا مُنصتين بشدة إليَّ بما فيهم إسراء. قال دكتور إسحاق وهو ينظر إلى رامي:

- كنت أتمنى تصدقني من الأول لكن ملحوقة، التصوير في البارون لازم يقف لحد كِده.

قال رامي وقد بدا مُصدِّقًا كل شيء:

- طيب والمشروع؟ ده كان أول تصويرا أومال هنعمل إيه في الأماكن الأقدم من القصر؟

قال خالد:

- مش كل الأماكن حصل فيها حوادث زي البارون يا رامي، أنا مع أونكل.

أردف دكتور إسحاق:

- كمِّلوا تصوير مباني مصر الجديدة اللي بناها البارون إمبان، كنيسة البازيليك، جامع الخديوي عباس حلمي التاني، ميدان الجامع

كان فيه السوق القديم ومساكن العُمَّال وقتها، عندكم حوالي ٧٣٠ مبنى تصوروهم، مش لازم نكمِّل القصر.

بدا رامي مقتنعًا ولم يعلِّق وخاب أملي في مزيدٍ من الوقت معه، وكانت إسراء شاردة ونظراتها حادة كأنها تمثال، لاح القلق على وجه حازم وقال:

- لا يا دكتور، اللي ظهرت دي مش هتسيبنا، أنا خايف على إسراء جدًّا، دي كده في أحسن حالتها.

حينها نظرت إسراء لدكتور إسحاق للحظات ثم ابتسمت وبدأت تضحك ضحكات ماجنة، علا صوتها تدريجيًّا ثم قامت ومالت إليه برأسها وهي تنظر في عينيه وتقول:

- حل عقيم وتفكيرَك عاجز زيك.

قمنا جميعًا من أماكنا بتلقائية وقد فُغِر فاه الجميع بعد سماعِ تلك الكلمات، وبينما دكتور إسحاق ينظر في عينيها في ثبات أردفت هي:

- اللي أنا عايزاه هيحصل بمزاجكم أو غصب عنكم، حتى لو كان هو مش عايزه.

ثم ارتعشت يدها وعيناها تغور للداخل ووقعت على المكتب فاقدة للوعي، أمسك بها حازم وأجلسها على الكرسي والجميع مذهول، أردف دكتور إسحاق:

- متخافش يا حازم مش هنسيب إسراء كده.

نقلها حازم لتستريح على الكنبة الجلدية وساد الذهول والقلق،

بينما يحاول حازم إفاقتها سأل دكتور إسحاق رامي وهو يقلِّب في النظارة:

- إيه الفرق بين الـ version ده واللي قبله؟

بدا رامي متعجبًا من توقيت السؤال لكنه أجابه:

- بنحاول بمُنتج محلِّي نقرب من العالمي، ده مش هيحصل على طول طبعًا، أحدث جهاز حاليًّا هو "كويست ٣" ودي أول نضارة موجهة للعامة مع واقع مختلط بالألوان عالية الدقة، بيتيح للمستخدم إنه يتنقل من الواقع الافتراضي إلى الواقع المعزّز، يعني تظهر فيه عناصر افتراضية متركبة على بيئته الحقيقية، النضارة دي بتحاول تعمل ده على استحياء، لكن لسه فيها شوية شغل.

لم نفهم وجهة نظر دكتور إسحاق ولم يفسِّرها هو، لكنه نظر لرامي وقال:

- أنا هاجي معاكم التصوير في القصر المرة الجاية، لعلها تكون آخر مرة في القصر.

أردف خالد بقلق:

- مِن اللي أنا شايفه مع إسراء ده، أخاف يكون القصر خطر على حضرتك.

خالد الشافعي

لا أحب أن أفهم كل شيء في الدنيا، عندها ستصبح الحياة مُملة وكئيبة، إننا نعيش شعور السعادة المؤقتة في المغامرات وتجربة الأشياء الجديدة، باختصار نحن نعيش لكي نفهم، ولكن حين نفهم تكتمل الدائرة ونموت! لذلك أفضل أن أعيش مغامراتي على مَهَلٍ.

لكن كل هذا تناقض مع تجربة القصر، إن القصر يدفعني لمعرفة المزيد من الحكاية التي اعتقدتُ أنني أعلم البعض منها، لكن هل أستطيع حقًّا أن أفهم، وإذا فَهِمت هل أعقل التعامل مع اللامنطق اللامحدود؟

اليوم أقِف في وسط مغامرة جديدة على أعتاب القصر، وبعد مغادرة آخر زوَّار القصر في سلام، أنتظر تعليمات بترا بالدخول، أنظر إلى وجوه أصدقائي الشاحبة القَلِقة، وإلى نظرة التحدي في عيون دكتور إسحاق، هذا النوع من الرجال لا يستسلم أبدًا، وأنا أحترمه لذلك.

سأغامر وأعمل اليوم بثلاث أرواح؛ الأولى روح الدكتور الذي سيتكفَّل بعمل اللازم في حالة الطوارئ التي لا أتمنى أن تحدُث، الروح الثانية هي ردّ الجميل لدكتور إسحاق وتواجدي معه للدَّعم، والروح الثالثة سأعمل مساعدَ تصويرٍ لحازم لبضع ساعاتٍ، بعد أن رفض كل من طلبه العمل معه وخاصة في القصر.

كانت ماريز تحمل نظارة "الميتافيرس" في يدها، تتفقدها وتسأل رامي عن تقنيات في التصنيع، وقفت بترا واجمة تراقب رامي

وماريز، همساتهما وضحكاتهما الخافتة، لغة جسد رامي تُفصح عن حمايته لماريز وخوفه عليها، والتي لم تعُدْ تقاومه بدورها فباتت تمنحه نظرات وهمسات تُجيبه بالموافقة على عودتهما من جديد، أما حازم فبات مهمومًا بعلاج إسراء التي تبدَّل حالها إلى أسوأ حال، المفاجأة كانت في ظهور نزار من جديد بعد أن فقدنا الأمل أن نراه، فكان في أحسن حال رأيته عليها منذ بدأ التصوير، وكأنه يستعدُّ لبطولة أو حدَث هام، قال: إن كارول مع الأولاد في لبنان وأن هذه فرصة للتوقُّف عن الشِّجار ولو لفترة يستعيد فيها توازنه في الحياة.

كان دكتور إسحاق جالسًا على كرسيه المتحرِّك ينظر إلى القصر وإلى نزار في وجل، ويراقبنا جميعًا كما أظن.

أشار رجل الأمن إلى بترا بأن القصر قد أصبح خاليًا، وبدأنا بخطوات ثقيلة وعقول مشتتة نتحرك إلى الداخل، بدا القصر هادئًا ومُريحًا إلى حدٍّ يتنافى مع ما حدَث فيه وما نريد معرفته، واكتشاف ما يضمره لنا البارون من مفاجآت، والهدف الأساسي مساعدة إسراء ومعرفة حقيقة ما حل بها؟

في البهو الرئيسي طلب دكتور إسحاق أن نتركه يتأمل القصر؛ لأنه لم يدخله منذ سنوات بعيدة، شعرت أننا مُشتتون وذهبت بترا إلى مكتبها في حالة مُضطربة، وطلبت منّا أن نهاتفها حين ننتهي من "التصوير"، أعتقد أنها لا تفضِّل رؤية ماريز مع رامي أمامها، تعتقد في قرارة نفسها أن ماريز هزمتها، في حين لم تَخُضْ ماريز الحرب من الأساس، كما أعتقد أنا أن رامي قد هزمني أمام ماريز، في حين لم يدخُل هو الحرب أيضًا، أخذ دكتور إسحاق من ماريز نظارة

"الميتافيرس" وبدأ ينظر من خلالها في جميع الاتجاهات! لم أفهم لماذا يفعل ذلك؟ وهل يرى عالمًا آخر بداخلها غير القصر؟!

دخل رامي مع ماريز يمينًا إلى غرفة الطعام، رأيتها تسمح له بالاتكاء على كَتِفها لإصابة ساقه، وذهبت أنا مع حازم وإسراء يسارًا إلى غرفة الصالون، في حين بقي نزار مع دكتور إسحاق في البهو.

ما رأيته في غُرفة الصالون أصابني بالذُّعر الحقيقي، كانت إسراء تقف مباشرة أمام المرآة في الصالون بجانب المدفأة، وطلبت من حازم التقاط صورة فوتوغرافية لها أمام المرآة، وكأنها تختبر شيئًا ما، إن إسراء التي أعرفها لا تتصرَّف على هذا النحو خاصة في ظروف كهذه، التفتَت بجسدها إليه واجمة، وفي هذه اللحظة البائسة رأيتها في نفس المرآة تنظر إليّ بداخلها وتبتسم وعيناها كلها تحدٍّ! دقَّقت النظر في المرآة فنظرت لي السيدة التي تتجسد بهيئة إسراء وبدأت ملامحها تتشكّل حتى أصبح لون بشرتها شاحبًا وملامحها مُخيفة، أمسكت هاتفي بيدٍ مرتعشة والتقطت صورة وحيدة، ولحُسن الحظ أو لسوئه لا أعلم كيف التقطت الكاميرا السيدة وإسراء معًا، في نفس المرآة وبنفس الهيئة والملابس، وكل منهما تنظر في اتجاه مختلف وبملامح مختلفة!! السيدة تبتسم وإسراء واجمة!!

نظر حازم إلى الصورة وقال:

- الإضاءة حلوة هنا.

انتبهت أنه لم يلتفت إلى وجود السيدة الأخرى، الأمر الذي

يُطمئنني على عقلي أن الصورة واضحة على كاميرا هاتفي، حينها سمعث صوت دكتور إسحاق ينادي:

- رامي..

اقتربت من حازم وهمست في أذنه أنه من الأفضل البقاء مع دكتور إسحاق الآن، وافق على الفور ونظرت إلى إسراء وقد باتت تبتسم نفس ابتسامة السيدة، لقد شعَرت بخوفي.

عندما خرجنا إلى البهو لاحظت أن ملامح نزار قد تغيَّرت من جديد وأصبحت أكثر حدَّة، ورأيت نظراته زائغة، لكنه يركِّز بشكل ملحوظ على إسراء التي كانت تنظر له نظرات تحدٍّ! حتى إن حازم لاحظ ذلك، خرجت ماريز مع رامي إلى البهو وقال رامي:

- حضرتك ندهت؟

أردف دكتور إسحاق وهو ينظر إلى السلم الخشبي الملتوي عبر نظارة "الميتافيرس"..

- عايز أطلع فوق، صوَّروا أكبر أوضة وسيبوني براحتي.

على الفور حملث الدكتور إسحاق مع رامي وسارع إلينا حازم في المساعدة، صَعِدنا به السُّلم إلى حيث رغِب، لكن نزار لم يُبد اهتمامًا ولم يساعدنا وظل مكانه يُشاهدنا عاقدًا ذراعيه!

عندما دخلنا غرفة البارون لاحظت أن نزار حتى لم يُكلِّف نفسه حتى عناء الصعود، نظر الدكتور إسحاق إلى الغرفة ثم ارتدى نظارة "الميتافيرس: ودخل إلى أكبر حمّام في القصر، كان لون جدرانه

أخضر فاتحًا والقيشاني به مميز وبنفس درجات اللون إلى نصف الغرفة وبها نافذة من الأرابيسك كبيرة، وبه وحدات إضاءة ذهبية اللون أنيقة، كان هذا حمام البارون الخاص، ثم خرج منه وطلب أن ننتظره حيث نحن ونصوِّر المكانَ، حينها خرجت من الحمّام وهبطت الدرج لأحضر الكاميرا ومعدات الإضاءة، وألقى حازم عليّ تعليماته التي يعتقد أنها بسيطة، وبعد أن انتهينا من الإعداد راجع حازم مع رامي الهدف من تصوير الطابق الأول للقصر، والذي يحتوي على عدد من الغرف والبلكونات والحمامات، وكيف سينسجون قصة مشوِّقة عن البارون على لسان راوي في المونتاج، أخذت إسراء تتفحّص الحمام وتسرح، ثم تخرج منه وأنا أراقبها وهي تنظر إليّ بين الفَيْنةِ والأخرى وتبتسِمُ في سخرية! بينما أخذ دكتور إسحاق يتجوَّل في بقية الغرف وحيدًا، يدخل الغرفة ويجلس فيها دقائق ثم يخرج منها، إن هذا القصر الكبير من الخارج مساحته ضيقة من الداخل! لذلك أنهينا تصوير بعض الزوايا والحمام الخاص بالبارون بشكل سريع، وأخيرًا دخل دكتور إسحاق الغرفة التي يُعتقد أنها كانت خاصة بالبارون، حيث إن غرفته لم تُحدَّد في الوثائق، وقد بدَت الحيرة والإحباط على وجهه ونحن لا نفهم شيئًا وقال:

- عايز أنزل تحت.

وقبل أن نُجيبه خرَج نزار من الحمّام الكبير وهو ينظر إلى الدكتور إسحاق مُبتسمًا وقال:

- كُنت عارف إنك جاي.

لقد تركنا الحمام خاليًا! تحولت ملامح نزار بشكلٍ واضح هذه المرة وأصبح وجهه شاحبًا، قالت ماريز وهي تُقاوم خوفها:

- نزار.. إنت طلعت إمته؟ ومال شكلك بقى كده؟!

لم يلتفت إليها نزار وكأنها لم تتفوّه بكلمةٍ وأكمَل وهو ينظُر إلى إسراء بتحدٍّ ويقول:

- وعارف كمان إنك جاية.

حينها أدركنا جميعًا أننا لا نعرف إلا تلك الأجساد أمامنا، لكن ماذا حل بإسراء ونزار؟ فهذا أكبر من أن نصدقه أو حتى نتخيله، ظلت إسراء أو السيدة بداخلها تبتسم ساخرة وهي تقترب من نزار في ثباتٍ إلى أن وقفت أمامه تمامًا وهي تثبّت عينيها في عينيه وأمسكت رأسه بعنفٍ وقالت:

- سهل تعرف.. صعب تقدر توقَّف اللي هعمله.

أردف نزار أو مَن يحتله في ثباتٍ صارم:

- أنا عملت كل حاجة في استطاعتي علشان أرضيكي، لكن أوعدك دلوقتي مش هسيبك تعملي اللي عايزاه.

ضحكت السيدة ضحكات عالية مخيفة، فخفتت الإضاءة وتقطّعت ثم كان ظلام دامس دام للحظات، بعدها عادت الإضاءة تعمل ورأينا أن نزار وإسراء قد اختفيا من حولنا! قال رامي هلعًا وكأنه يشكّك فيما يرى:

- راحوا فين؟!

جحظت عينا حازم حتى ظننت أنهما ستخرجان من مُقلتيهما، قال دكتور إسحاق بقلق:

- شوفوهم تحت ولا لأ.

هرع الجميع إلى الطابق الأرضي يبحث عنهما بلا جدوى، حينها قال دكتور إسحاق:

- لازم ننزل عند بترا دلوقتي.

كنا ننفذ ما يقول دون مناقشة، وكأنه دليلنا المُعتمد في القصر، لكن ماذا لو حبسنا القصر كما حبسهم من قبل؟

عندما دخلنا "البدروم" ذهبنا مباشرة إلى مكتب بترا لكنها لم تكن موجودة، حاولت الاتصال بها رغم علمي بأن شبكة الهاتف لن تعمل هنا في هذه المنطقة من القصر، نظر الدكتور إسحاق إلى رامي وقال:

- الموضوع كله أساسه هنا.

نظرنا جميعًا إلى بعضنا البعض لا نفهم شيئًا فأكمل وهو لا زال ينظر لرامي:

- في الوقت المناسب هتعرف كل حاجة.

في طُرقة البدروم المليئة بغرف الخدم في زمن البارون بدأت أصوات ترانيم قديمة، وكأنها تأتينا عبر سماعات مدوية الصوت! العجيب أنهم جميعًا لم يندهشوا وهذا أثار فضولي! إذ لم تكن هناك سماعات! تحرَّك الدكتور إسحاق إلى الأمام وهو مرتدٍ نظارة

"الميتافيرس" ثم انعطف يسارًا ونحن وراءه وصوت الترانيم يعلو، عند انتهاء ممر الطرقة لم يكن هناك مزيد من الغرف وتوقف الدكتور، وأخذ يتلفت باحثًا عن شيء في الحائط، كُنت أعلم أنه يبحث عن خرافة الغرفة الوردية وكنت شغوفًا أن أعرف حقيقة أمرها، أشار الدكتور إسحاق إلى اليمين وقال:

- الأوضة كانت هنا، لازم غطوا عليها بالدهان.

حينها سمِعنا أصوات نقل أثاث واضحة تأتي من فوق! نظرنا إلى فوق وقلت:

- نطلع فوق ولا دي خدعة؟

قبل أن يُجيبني أحد سمِعنا صُراخ إسراء يعلو وتستغيث بحازم من داخل الحائط أمامنا حيث أشار الدكتور إسحاق ، هرع حازم إلى مصدر الصوت وقد بدأ الشك يأكل من عقله، وقال وهو ينظر إلى الدكتور إسحاق:

- دي مش إسراء.

أردف الدكتور إسحاق بثقةٍ وهو يخلع نظارة "الميتافيرس":

- المرة دي إسراء هي اللي جوه.

تمادت إسراء في صُراخها من داخل الحائط لكن كيف نصل إليها؟ تحسَّس حازم الحائط، وهو يدق عليه دقات خفيفة، وقال:

- ده خشب مش حيطة.. رامي.. خالد.. عايزين نشوف أي حاجة نكسَّر بيها الخشب ده.

لاح التردُّد على رامي وقال:

- إحنا ماضيين على سلامة القصر في أول يوم تصوير!

تركتهم وذهبت على الفور خلف الحمامات الخارجية بالحديقة الخلفية، والخاصة بزوّار القصر فأحضرت قطعة حديد من مخلّفات التجديد منسية كنت قد لمحتها، وبدأ حازم في تكسير الخشب وصوت إسراء يتضح ويقترب، وسط الصمت الذي لم يقطعه إلا أصوات الترانيم التي كانت تعلو تدريجيًا حتى كدت أفقد عقلي، وحين تكسّر الخشب رأينا بابًا قديمًا واضحًا، قلت بعفوية:

- الغرفة الوردية؟

نظر الجميع إليّ بذهول وكأنني أُفصح عن سرٍّ لا يعلمه أحد فقلت:

- دي حاجة معروفة عن تاريخ القصر لكن كله بيأكد إنها مجرد خرافة!

قال حازم بصوت عالٍ متوتر:

- إسراء.. متخافيش هنفتح الباب بس ابعِدي عنه.

وهنا لم ينقطع صُراخها الذي شعرت معه أني فقدت حاسة السمع، وبدأ حازم يكسر الباب ورامي يحاول مساعدته وبمساعدتي انفتحت الغرفة أخيرًا وكانت مُظلمة وانقطع صوت إسراء.. لكن لم تنقطع الترانيم! هنا ألقى حازم بقطعة الحديد بيده على الأرض وتحدّث إلى الجدران مُنهارًا:

- كفاية بقى.. كفاية.. إسراء.. إسرااء.

أشار إلينا دكتور إسحاق أن ننتظر حتى يدخل هو على ضوء هاتفه، وسمِعنا صوت إسراء تقول بهدوء واضح من داخل الغرفة وكأنها لم تبكِ أو تصرخ أبدًا!

- أهو دكتور إسحاق بنفسه معانا تِحب نِحكّمه ونشوف مِين اللي اتظلَم ومِين اللي غلطان؟

تحجّرنا في أماكننا في حين لم تسيطر ماريز على مشاعرها فانفجرت في البكاء، وسمِعنا صوت نزار يقول في توعُّدٍ:

- حتى لو قدرتي تفتحي الأوضة مش هتفتحي السِّرداب.. السِّرداب إتردم ومش هيتفتح تاني.

قال دكتور إسحاق بحسم:

- زي ما قال كده بالظبط، مفيش حاجة تانية هتتفتح حتى لو كان التمن موتي أو موتك.

لم يتمالك حينها حازم نفسه فدخل بسُرعة الغرفة ونحن وراءه، ورأينا مرايات عملاقة الحجم تغطّي الجُدران كلها، منفصلة عن بعضها البعض بإطارات خشبية قديمة متلاصقة، وإسراء ونزار يقفان أمام بعضهما وبينهما دكتور إسحاق، ثلاثتهم في المرايات يتحركون حركات مختلفة! تارة صامتون وتارة يضحكون وتارة يحاولون قتل بعضهم! لما دقّقت النظر رأيت دكتور إسحاق ونزار يحاولان قتل إسراء! هذا المشهد لن أنساه ما حييت، على إضاءة هواتفنا التفتَت

إسراء إلى حازم وابتسمت ويدها تُلامس خده وقالت:

- كنت متأكدة إنك مستحيل تسيب مراتك حبيبتك لوحدها.

هدأ حازم وقد أمسك يدها وقبَّلها، لكن قبل أن يتحدث تركته وذهبت إلى رامي، واقتربت منه كثيرًا ونظرت إليه بغنجٍ وسط ذهول حازم وماريز، بدا رامي شاردًا وهو ينظر إلى عينيها، اقتربت هي منه أكثر ورأيت يدها على جيب قميصه وهي تهمس في أذنه بطريقة غير لائقة! أومأ لها رامي بالموافقة وعندها وبشكل مفاجئ تلفت حوله وكأنه يستفيق من حلم وهو يردد "ماما.. ماما إنتي شايفاني؟" وكأن هناك من يهمِس في أذنه! حينها صاح الدكتور إسحاق لإسراء:

- قولنالك مش هتقدري تعملي حاجة.

نظرت له في توعد وهي تقول:

- هنشوف..

على الفور سمِعنا صوت طلقات نارية وسط أصوات الترانيم، ونحن نتلفت في ذعر مبين رأينا الدكتور إسحاق مُلقًى على الأرض وكذلك نزارا وإسراء تنظر لهما وتضحك، هرع حينها رامي إلى الدكتور إسحاق وهو يصرخ خائفًا:

- بابا..

حينها نظرت إسراء إلينا جميعًا وغارت مقلتاها إلى الوراء وفقدت وعيها بجانبهما!

وكانت هذه هي المرة الأولى التي رأيت رامي خائفًا على والده

وقد تخلّى عن لقب الدكتور إسحاق.

رامي إسحاق

أمسك أبي بيد أمي ورنا وساروا في ثبات وسط الصحراء باتجاه "قصر البارون إدوارد إمبان"، الطقس حار وقد تركت أشعة الشمس الحامية أثرها حتى وقت الغروب، وأنا أسير خلفهم أتصبب عرقًا وأريد أن أحذرهم، عند عبورهم باب القصر كانت النباتات النادرة تملأ الحديقة الأمامية، وأضفت شكلًا جماليًا مُبهرًا، أخذت أسرع في خطواتي وأناديهم- كنت خائفًا- وهم لا يسمعون، لكنهم كانوا بالفعل داخل بهو القصر، استقبلهم ورحب بهم رجل أرستقراطي قصير له ملامح أوروبية وشارب مميز، هذا هو الرجل الذي رأيته من قبل مع جدي أمام القصر أثناء بنائه، والآن يستقبل أبي وأمي وأختي، أحاول أن أتذكر مَن هذا الرجل، إنني أعرفه، مهلًا.. إنه "البارون إدوارد لويس جوزيف إمبان"!

سارت عائلتي مع البارون باتجاه غرفة الطعام بقصر البارون وهم يتحدثون، بينما أسير خلفهم على مقربة ولا أحد يراني أو يشعر بوجودي، كانت نبرة صوت البارون مألوفة لي إلى حدٍّ كبيرا! وهذا أمر غريب، جلسوا على مائدة فخمة مع قِلة من صفوة المجتمع، والخدَم يسيرون في كل الاتجاهات يقدمون المشروبات إلى مدعوين آخرين في البهو، يبدو أنها حفلة عشاء كبيرة.

وقفت بين البهو وغرفة الطعام لأرى المدعوين وأزياءهم، انصياع الخدم للبارون ونظافتهم، أرى القصر للمرة الأولى وقد ملأته موبيليا قيمة وثمينة، وأخيرًا، هبطت الدرج الخشبي سيدة أرستقراطية لها

كاريزما طاغية، ترتدي فستانًا أحمر ضيقًا وقبعة سوداء تغطي نصف وجهها، مجوهراتها تتلألأ فوق قُفاز أسود طويلٍ تحت إضاءة القصر، وتمسك بيدها سيجارًا مُشتعلًا، وقفت مكانها تنظر إلى الحضور من فوق باستعلاء قبل أن تنفث دخان سيجارها، وبظهورها تجمد الحضور والخدم للحظات، اقترب منها رجل أرستقراطي ومدَّ يده إليها مرحِّبًا وساعدها في إنهاء آخر درجات السُّلم الخشبي، أعطته يدها وهبطت على مهَلٍ وسارا باتجاه غرفة الطعام، كلما مرت أمام أحدٍ انحنَى في احترام مُحييًا، أثارت المرأة فضولي وقرَّرت أن أقضي الليلة معهم، سرت وراءها إلى حيث تجلسُ عائلتي مع البارون، وحين دخولها فزِعت أمي ووقف أبي حائرًا ماذا يفعل، وقف البارون إمبان ولاحَ عليه التوتر وهو ينظر إليها، وفجأة رأيت أمي تنظر إليَّ مباشرة وتصرخ:

- متعملش اللي بتقولك عليه يا رامي.

حاولت أن أقترب منها لكنها بقيت على مسافة بيننا، وصِحتُ وأنا أتمنَّى أن تكون الحقيقة هي ما أراه والحلم هو عدم وجود أمي.

- ماما.. ماما إنتي شايفاني صح؟

قالت على الفور وهي تختفي تدريجيًّا وتنظر إلى أبي في حبٍّ:

- خلي بالك على إسحاق يا رامي.. وسامحه، بابا محتاجلك دلوقتي أكتر من أي وقت.

سالت دموعي وأنا أراها تختفي من جديد والجميع يختفون بعدها، وشعرت بوخزٍ خفيف في كتفي وسمعت صوت ماريز تقول:

- رامي.. رامي إصحَى.

استيقظت من إغفاءتي في المستشفى، كنت جالسًا بجانب ماريز على كنبة جلدية صغيرة بالقرب من غرفة العناية المتوسطة التي يرقُد فيها أبي، وقد مالت رأسي على كتِفها أثناء نومي دون قصد، قالت في حنانٍ لم أشعر به معها منذ عشرين عامًا:

- إنت بتعيط؟

تفاجأت بدموعي وقد بدأتُ أستفيق، وتذكّرت حديث دكتور المستشفى إلينا بالأمس عن إسراء ونصيحته لنا بزيارة طبيب نفسي بأسرع وقت؛ لأنها مصابة بصدمة نفسية، اختارت على أثَرِها ألّا تتكلم واصطحبها حازم إلى البيت.

لاحظت أن ماريز لا زالت ترتدي نفس ملابسها بالأمس، من الواضح أنها لم تتركني بعدَ أن وصلنا إلى المستشفى وبعد كل ما حدَث في "الغرفة الوردية" كما يطلقون عليها، لا أعلم لماذا سُميت وردية! تسميتها بـ"غرفة المرايات" أوقَع بالنسبة لي، قمنا ودخلنا لأبي لأطمئن عليه، وكان نائمًا فبقينا بجانبه، نظرت في ساعتي وقلت متفاجئًا:

- ياه قربنا على الضهر!

أردت أن أتذكّر كل ما حدَث وسألتها:

- نزار فين؟

نظرت إليّ بتعجبٍ وقالت:

- إنت نسيت؟ إحنا فوقنا نزار في القصر ولمّا جينا كشَف، والدكاترة قالوا إنه إرهاق شديد.

بسخرية أردفت:

- بعد كل اللي شفناه لسه هنقول إرهاق!

- مينفعش نقول للناس غير كده.. عمومًا خالد روح نزار وقال هيغير وييجي مع صباح، قولتله يجيب قهوة في طريقهم، زمانهم جايين.

نظرت لها بامتنان وسألتها:

- إطمنتي على بنتك؟

ابتسمت وقالت:

- أكيد.. الحمد لله هي مع مامي.

أمسكتُ رأسي التي أوشكت على الانفجار وسألتها:

- عينة نضارة "الميتافيرس" فين؟

- نزار أخدها منك لمّا روّحناه.. قال حاجة تسلِّيه.

كنت كمن فقد الذاكرة فأومأت بالإيجاب، وقلتُ في أسفٍ:

- خالد تعب معانا.

أجابت على الفور وهي تبتسم في مكرٍ:

- معرفش ليه كنت شايله فوق راسك! خالد شهم وغلبان وروحه

في باباك، ده أونكل مسابوش بعد ما باباه توفي.

ابتسمت لأنها تعلم إجابتي جيدًا، حينها شعرت بوخز في ساقي يؤلمني وصمتنا للحظات وهي تنظر إليّ في شكٍّ وسألتني:

- ممكن تجاوبني بصراحة.. إنت إمبارح سمعت طنط كلير في الأوضة؟

- سمعت صوتها في ودني زي ما انا سامعك كِده! واضح بتحذَّرني من إسراء.. أو من الست يعني، هتقولي عليّا إتجننت صح؟ حقِّك.

نظرت إليّ خائفة وقالت:

- أنا كمان سِمعته يا رامي!

بقينا حائرين ولم يُعكر الصمت إلا صوت صَفَّارات الأجهزة الطبية في الغرفة، قالت ماريز بصوت خافت:

- أنا مبسوطة لأن علاقتك بأونكل اتحسنت.

نظرتُ إليهِ مُشفقًا وقلت:

- تعرفي يا ماريز.. أول ما رجعت الشقة حسيِّت إن مساحتها ضاقت! وإنها مبقتش واسعة زي زمان! طبعًا ده مش حقيقي.. أنا اللي كنت شايفها كبيرة وأنا صغير، يمكن كمان أنا اللي كنت مكبّر أفعال أبويا جوّايا وهي مكنتش بالحجم ده.. فاهماني؟

أومأث بالإيجاب فأكملث:

- يا رب ميكونش فات الأوان.. أنا خايف يسيبني من غير ما أقوله

إني بحبُّه بس كنت زعلان منه.

أعطتني ابتسامة طمأنتني وهي تقول:

- ما فاتش الأوان.. وهصلِّيلك متفقدوش، الفقد ده حاجة صعبة جدًّا.

التفتَ إليها كطفلٍ تائه وجَد أمه، فبادرت هي بتغيير دفةِ الحديث وقالت:

- إسمع.. أنا بقالي فترة بدوَّر على تاريخ القصر، مين عاش فيه وإيه اللي حصلُّه، يُقال إن أخت البارون اللي ماتت واقعة من البرج كانت ست صعبة، ويقال إن البارون مسمعش استغاثتها وهي بتصرخ لما وقَعت، وإنه حاول ينقذها لكن ملحقش، واكتأب بعدها لكن هي ماسامحتوش، روحها يعني، وإنها فضلت كل ليلة تصرخ في القصر في وقت وقوعها منه! بعد كده مات خدَم كتير في القصر في حوادث مختلفة! مفيش حاجة مؤكدة من كل ده، لكن معرفش ليه بعد ما قريت عنها حسيت إسراء بتتصرف زيِّها! طبعًا كل ده معندناش إثبات إنه حصل قبل كده، رغم كل الحوادث اللي بتحصل في أماكن عادية والناس بعدها بتقول بنسمع أصوات الحادثة، زي المطربة اللي اتقتلت في الزمالك مثلًا! دي حادثة مشهورة وسكان العمارة كانوا بيسمعوا صوت الصريخ طالع من الشقة وهي فاضية!

كنت منصتًا بشدّة لما تقول لعَلِّي أجد تفسيرًا لما نَمر به وأردفت:

- إحنا في كل الأحوال مش هنروح القصر تاني، كفاية قوي لحد كده.

قالت في حماس:

- بالعكس، ده إحنا لازم نكمّل بعد ما وصلنا للأوضة، فيه سرّ وواضح إن إحنا بس اللي نقدر نكشفه، فيه سر بيجري ورانا، ومتنساش طلب حازم يا رامي، مينفعش نسيب إسراء كده، خلاص القصر بقى مسئوليتنا، فيه هدف من كل اللي بيحصل ده.

قلت مستفسرًا:

- لو فرضنا كل ده فعلًا مترتِّب، ليه إحنا بالذات؟ مش معقول علشان شوية الورق القديم اللي أبويا محتفظ بيهم في البيت!

اقتربت مني أكثر في جِلستها ونظرت في عيني بتمعُّنٍ وقالت بنبرة مختلفة تحتمل معاني مختلطة كثيرة:

- مفيش حاجة بتحصل في الكون صدفة.

تلاقت العيون أخيرًا في صفاء وقالت ما لم تستطِعْ ألسنتنا قوله، حينها دقَّت طرقتين خفيفتين على الباب ودخل خالد يحمل القهوة وصباح خلفه وقد هرعت إلى أبي تطمئن عليه وتقبِّل يدَه وجبينه، قالت ماريز:

- أنا ورامي هنطلع لأن ممنوع أكتر من اتنين في الأوضة، واحنا مش في مواعيد الزيارة أصلًا، علشان منلفتش النظر.. ياللا يا رامي.

بدأ خالد يتفقد الأجهزة الطبية وأبي في تأثر، وصباح تنظر إليه في شفقةٍ وخوف، خرجت مع ماريز إلى حيث كنا نجلس على مَقرُبةٍ من الغرفة لنحتسي قهوتنا، عندما جلسنا سألتها بتلقائية وأنا أنظر في

عينيها:

- حبتيه؟

أجابت بتلقائية أسرع وقد تغيَّرت نظرة عينيها:

- شريف كان راجل حِنَين وبيحبني وبيعمل أي حاجة ترضيني.. كنت بحس بالأمان في وجوده، كنت واثقة إنه مش هيسيبني إلا بالموت، تفتكر هيبقى صعب أحبه؟

أردفت وقد شعرت بالغباء؛ لأنني فتحت موضوعًا مغلقًا بالحساسية لدينا:

- عندك حق.. الأمان مهم جدًا في العلاقات.

حينها جاء خالد إلينا ورأيت آثار بكاء في عينيه، كنت مشفقًا عليه فربّت على كتفِهِ وقلت في أمل:

- إن شاء الله هيبقى زي الفل.

ربت على يدي في ودٍّ حقيقي وقالت ماريز وهي تتفقد جيوبها:

- طيب أنا هجيب الموبايل من عند أونكل.. تقريبًا نسيته في الأوضة.

ذهبت ماريز وقال خالد بصوت ملؤه الشفقة:

- رامي.. أنا عارف إني كنت سخيف معاك من أول يوم، كأننا فوق راس بعض زي ما بيقولوا، حقَّك عليًا.. إنت كنت بعيد لسنين وأنا كنت حاسس إن دكتور إسحاق أبويا، أو كان معوضني، وفجأة جيت

إنت وحسيت إنه نسيني وعايز يرضيك بأي طريقة، أعتقد إني غِيرت.

قلت وقد بدأت أشعر بودٍّ تجاهه:

- ولا يهمك.. أنا كمان كنت بتلكك، ومتشكر إنك وقفت جنب بابا كتير، هو كان محتاجلك أكيد.

ابتسمنا ثم قال خالد بحماسٍ:

- أنا مستني دكتور إسحاق يقوم بالسلامة هقوله خبر يفرَّحه، عارف إن مش وقته بس عايزك أول واحد يعرف، ومتقولش لحد.. أنا هخطب صباح.

كانت مفاجأة لي، باركت له فرحًا..

- صباح تستاهل كل خير.. ألف مليون مبروك.

نظر خالد في ساعته وقال:

- الله يبارك فيك.. شوية وهتحرك على حازم أطمن على إسراء.

- وطمني عليها.

حينها جاءت ماريز لاهثة وقالت:

- أنا ناديت الدكتور النبطشي؛ لأن دكتور إسحاق بدأ يفوق وطمني.. هيعملوله شوية فحوصات إضافية يتأكدوا من شوية حاجات وممكن يخرج قريب.

هرعنا إلى غرفة أبي، وحمِدت الله لمّا رأيت عينيه تنظران إليّ في

وهَنٍ، قبّلت يدَه ورأسه ورجوته أن يفيق ويقوم معي إلى البيت، شعرت أن كل أحلامي وطموحاتي، وأموالي وكل حياتي لا تساوي أن يرحل أبي وبيننا خصام، وأشياء خبيثة في صدري نمّاها غروري وشيطاني عبر السنين.

الحياة الحقيقية كانت ستتوقّف تمامًا إذا ما أغلق أبي عينيه ولم يفتحها للأبد، أمسك أبي يدي بيدٍ مرتعشة ضعيفة ولمَحت ابتسامة رضًا في عينيه غمرتني بالسعادة، كانت صباح تقِفُ في ركن الغرفة تبكي، واستأذنت للرجوع إلى البيت لعمل طعام مخصّص له، وتأثر خالد بشدةٍ، وماريز تنظر إلى صباح بتفحصٍ! بعد بُرهة رن جرس هاتفي عدّة مراتٍ متوالية تجاهلتُها، وكنتُ على وشْك إغلاق الهاتف لكني رأيت أن المُتصل "حازم"، بمجرد أن أجبتُه قال بصوت سمعه جميع من بالغرفة:

- إسراء يا رامي إختفت.. أنا دخلت آخد دش وطلعت ملقيتهاش! أنا تعبت!

لمحت نظرات خوف في عين أبي، ولاح التوتُّر على الجميع فهمست ماريز في أذني:

- قول لحازم أنا عارفة إسراء فين

حازم جمال

لا أعلم لماذا تصيبني الحياة بكل هذه اللعنات؟ فأنا شخص مُسالم إلى أقصى حدٍّ، لا أرغب إلا العيش بسلام وسعادة قدر استطاعتي؛ لأنني أعلم جيدًا أن الدنيا تعكِّر الصفاء في لحظات بتقلبات أمورها، ومع ذلك ومنذ طفولتي أبحث عن السعادة؛ أجدها تارة في السباحة، وتارة في الموسيقى، وتارة في السفر وفي أصدقائي، وفي استقرار زوجتي وأبنائي، وأظل أركض وراءها بكلِّ طاقتي بلا مللٍ.

منذ أن رأيت إسراء أصبحنا أصدقاء على درجة كبيرة من الوعي في علاقتنا، كنت أدخل علاقات كثيرة بدون مسمى، لكن وجود إسراء ملأ حياتي بطريقة مختلفة، ومنذ أن دخل الحب بيننا أصبحنا على درجة كبيرة من الشفافية، ولم أضطر لأن أخفي شيئًا عنها، ومع التجارب ومشاكل الحياة والاختلاف والمشاكسات تعلمنا الحب، الحب ليس أن تشتبك أيدينا معًا في الطريق، الحب هو الشعور أن شريك الحياة هو البيت والملاذ الآمن من غدر الحياة، وكان هدفنا من الدنيا واحد، أردنا أن نعيش اليوم وكأنه آخر أيامنا على الأرض، أليس هذا واردًا؟

أعمل بكدٍّ لكي أوفِّر لي ولأسرتي مستوًى جيدًا من السعادة، وأظن أنني قد نجحت بشكل كبير، لكنني لم أعلم أن بقبولي مشروع رامي ومع بدء تصوير البارون ستتحول حياتي إلى جحيم، إنني أفتقد زوجتي بشكلٍ كبير، منذ أول يوم لنا في القصر وإسراء لم تعد معي إلى البيت، إن نظراتها زائغة أغلب الوقت، وضحكاتها مُخيفة،

أصبحت كالمومياء التي تبحث كل يوم عن شيء لا أعلمه، كما أنها أصبحت عنيفة لا تحب الأسئلة، أو ساهمة لا تتحدّث معي وكأنني غير مرئي، وإلى الآن لم أجرؤ على مصارحة أختها أو أي فرد من أفراد عائلتها بما يحدُث، فقط هاتفت أختها واطمأننت على الأولاد وطلبت منها أن يبقوا معها حتى آتي وأصطحبهم بنفسي؛ لأننا منشغلون كثيرًا بالتصوير هذه الأيام.

والآن أجلس في غرفة المعيشة كأنني في مأتمٍ، ومعي رامي الذي ترك والده في المستشفى وحيدًا لحين عودة صباح إليه، أما خالد فنام على الكنبة كأنه جثة هامدة من شدة الإرهاق، وماريز قد جحظت عيناها وهي تفكّر بصوت عالٍ، أما نزار فقد أتى على الفور بعد علمه باختفاء إسراء وقد بدا طبيعيًا إلى حدٍّ كبير لم أتوقعه! لديَّ الكثير من الأسئلة له لكن الظرف وطاقتي النفسية لا يسمحان بأن يلعب لُعبة فقدان الذاكرة الآن، ولن أحصل منه على إجابة شافية في النهاية كما تفعل إسراء؛ لذلك التزمتُ الصمت حفاظًا على ما أمتلكه من طاقة أحتاجها، الساعات تمرُّ ببطءٍ مُميت، لكننا نقترب من وقت العصر.

تُجزم ماريز أن إسراء بداخل غرفة المرايات بالقصر! كيف؟ ومتى ذهبت ودخلت؟! لا أحد يعلم، لكنها تُقسم أن حدسها لم يخطئ أبدًا، بعد محادثتي مع بترا منذ ساعتين أقسمت أنها لم ترَ إسراء منذ آخر مرة رأتها، وأنا لم أُفصح لها بما حدَث في تلك الليلة في الغرفة اللعينة، كي تسمح لنا بالتصوير من جديد، ما أتعجب له أنها لم تكتشف فتح الغرفة وما أحدثناه من تلف في الجدار! أم ترى القصر

قد أخفى ما فعلناه لمواصلة المغامرة؟

قالت بترا إنها لن تذهب إلى القصر اليوم لمرضِ أمِّها، وأنها أخبرت الأمن بقدومنا بعد مواعيد القصر الرسمية، كما أنها ألحَّت على إنهاء التصوير مبكرًا لكي لا تتعرض سُمعتها للقِيل والقَال في وزارة السياحة فيظن البعض أنها تستأجر القصر لحسابها!

لم أُطِقْ صبرًا وقرَّرت أن أذهب إلى قسم البوليس لأبلغ عن اختفاء إسراء، لكن رامي أبلغني أنه يجب أن يمر أربع وعشرون ساعة على الأقل ليتم البلاغ، وأخيرًا، باتت الساعة الثالثة وخمس وأربعون دقيقة، انتفضت من مكاني وانصاع الجميع لرغبتي وأيقظوا خالد لنذهب إلى القصر بدون مُعدات، لم نلتفت لذلك، وأبلغ خالد الأمن أننا تركنا ما نحتاجه من مُعدات في غرفة بجانب مكتب بترا، أرجو ألا يهاتفها الرجل حتى نُحضر إسراء، رغم أنني غير مقتنع بوجودها في القصر إلا أنني أتمناه وإلا أين عساها أن تكون؟

أخيرًا، دخلنا وبدأنا نبحث عنها في كل شبر من القصر، حين بلغنا "غرفة المرايات" كانت الفوضى من حولها قد عُولجت بشكل كبيرا! لكن باب الغرفة الوردية ظاهر ومغلق! كيف لم تُعلق بترا على هذه الفوضى وما فعلناه؟! بخبطة خفيفة من خالد فُتحت الغرفة ورأينا أن المرايات كلها قد تم تغطيتها! شعرت بغثيان ورغبت بالتقيؤ، ماذا سأفعل وأين سأجدها؟

وقفنا في دائرة ننظر إلى بعضنا بتعجُّب ثم قال رامي وهو ينظر في ساعته:

- مفيش فايدة من وجودنا هنا يا جماعة، فاضل كام ساعة ونبلغ البوليس.. تعالو نرتاح شوية عندي ونشوف هنعمل إيه.

استشطت غضبًا وأنا أنكزه في كتفِه ساخطًا:

- طبعًا.. بكل برود نرتاح ونشوف هنعمل إيه! ما هي إسراء متخصكش، إنت المسئول عن كل ده، لولا التصوير في القصر مكنش حصل كل ده.

صاح رامي بغضب:

- إنت اتجننت؟ مين قال إن مش هاممني! إنت مش شايف أبويا حصله إيه؟

وقف خالد بيننا وقال:

- رامي ما يقصدش، إهدا يا حازم إحنا كلنا فاهمين موقفك وحاسين بيك، وإسراء أختنا وصاحبتنا ومحدش هيروَّح إلا لما نلاقيها.

زفر رامي، وقال نزار بحزم لم أعهده فيه:

- أنا المسئول إني أرجعهالك يا حازم.

كانت نظرات نزار ثابتة ليس بها مشاعر، وهذا استفزني إلى حدٍّ كبير، اقتربت منه وقلت بسخرية تامّة:

- وآدي الباشا جاي مبرشم تاني يقولي أنا المسئول!! إنتَ مسئول إنت؟

أمسك بي خالد وهو يدفعني إلى الوراء وقد علا صوته بحسم:

- ما تهدى بقى يا حازم.. كده هتلاقيها يعني؟

زفرت، وأنا أمسك برأسي ولا أعلم ماذا أفعل؛ فأكمل خالد:

- إحنا فعلًا محتاجين نهدى علشان نفكّر، أنا مع رامي.. نروح عنده ونفكّر بهدوء ونتحرّك بخطوات منظمة.

لم أملك حينها إلّا الانصياع لما قاله خالد، إلى أن يمرّ الوقت وتنقضي الأربع والعشرون ساعة على الأقل، السؤال الأهم ماذا سنقول في المحضر؟ فتحنا "غرفة المرايات" التي لم يكن من المُفترض فتحها؟! أم نقدم تقرير المستشفى الذي ينصحنا باستشارة طبيب نفسي!

ذهبنا جميعًا إلى بيت رامي، وأمام باب الشقة اكتشف رامي أن مفتاح الشقة ليس بحوزته فقال:

- غريبة.. أنا متأكد إنه كان في جيبي!

قالت ماريز:

- شوفه كده في العربية يمكن نسيته فيها.

تركنا رامي وذهب إلى سيارته، وبينما ننتظر قدومه علا صوت الترانيم من داخل شقة رامي! مرة أخرى الترانيم! جحظت عيوننا وقال خالد:

- دي الترانيم اللي اشتغلت في القصرا

بطريقة عفوية بدأت أطرق الباب طرقات متتالية ثم طرقات عنيفة دون جدوى، إلى أن ظهر رامي وعلت أصوات الترانيم من حولنا، قال رامي بتعجبٍ:

- أنا ملقيتش المفتاح.. إيه الصوت ده؟

بدون أن نتحدث أخذت أحاول كسر الباب، وانضم إليّ رامي وخالد، ودخلنا الشقة جميعًا فرأينا ظلًّا أسود ضخمًا يقف أمامنا في الصالون، اقترب نزار بخطوات ثابتة من الظل فصرخت ماريز:

- نزار.. إستنَّى.

لم يلتفت نزار أو يرد وحينها فتح رامي الإضاءة واكتشفنا أن الظل الأسود هو إسراء! بدت كالمجانين بشعرٍ أشعَث وعيون حمراء شيطانية جاحظة، تنظر إلينا ورأسها تتمايل وتبتسم وبيدها سكين كبير تضعه على رقبة صباح من الأمام! التي كانت ترتجِف خوفًا، من الواضح أن إسراء قد قطعت أقمشة الصالون بالسكين قبل أن تمسك برقبة صباح! تسمَّرنا في أماكننا من الدهشة، وعينا صباح تستغيثان بنا ونحن لا نعرف ما علينا قوله أو فعله.

حينها قال نزار وكأنه يعلم عن زوجتي ما لا أعلمه:

- هاتي السكينة دي وسيبي البنت.

التفتت إليه بسرعة وهي تدق دقات منتظمة بالسكين على رقبة صباح وقالت بنبرة هادئة:

- تلاتة.. إتنين... وا..

قاطعها نزار بنبرة أعلى وقال:

- صباح متعرفش مكان أي حاجة.

نظرت إسراء له بسخرية وقالت:

- حاجتين بيتحكموا في الناس.. الخوف والحب، إنت إتحكمت زمان بالحب وسيبتلي أنا الخوف.. بس عارف الخوف دايمًا أقوى من الحب.

حينها ضغطت ضغطة أخرى على رقبة صباح التي صرخَت صرخة خائفة، ثم نظَرت إلى خالد الذي بدا خائفًا وابتسمت وأفلتت صباح التي هرعت بعيدًا عنها، ثم نظرت لنزار غاضبة واقتربت منه إسراء تريد قتله وهي تصرخ:

- إبعد عني.

هرعنا إليها وأمسكت بيدها وقد بدت قوية جدًّا حتى إنني لم أستطع فك قبضة يدها لأفلت السكين!

قال نزار بهدوء عجيب:

- أنا متأكد إنك مش هتئذِي حد.. خلِّي إسراء ترتاح.

رفعت حاجبيها في تعجُّبٍ وقالت:

- إسراء! طبعًا مش هسيبها.. هي اللي جاتلي ودوَّرت عليًّا.

أمرها بعنف:

- سيبي إسراء في حالها وأنا أساعدك.

نظرت إسراء إلى نزار وابتسمت قائلة:

- وأصدقك ليه المرة دي؟

حينها التقت عينانا ورأيتها تتحول وتتبدَّل إلى امرأة مسكينة لا تملك من أمرها شيئًا، بكت وهي تستعطفني:

- حازم.. إلحقني يا حازم.. أنا تعبت قوي منها.

قال نزار بحسم:

- خد منها السكينة بسرعة.

وقبل أن أفعل وفي غضون ثوانٍ تحوَّلت ملامحها وتغير صوتها فأصبح بشعًا وهي تصيحُ:

- إخرس.. هخليك تندم على كل حاجة.

وفجأة فكت يدها بسهولة وابتعدت عني وقد وضعت السكين على رقبتها وقالت:

- لو قربت مني يا حازم هموِّت إسراء.

وقفت ماريز تبكي وإسراء تنظر إليها وتضحك، نظرت إلى نزار ورامي وخالد وقد فهموا ما أردت وفي غضون ثوانٍ انقَضضنَا عليها فأمسكنا بها وبالسكين وسط صُراخ وعويلٍ مخيفٍ يصدر منها، جعل جسدها كله ينتفض وكأنها في حالة صرع صريحة، ثم هدوء تدريجي وإغماء.

نصحنا خالد بعدم الإهمال في حالتها؛ إذ إن الإسعافات الأولية

لن تفيد بعد الآن، لا بد من نقلها إلى المستشفى، في طريقنا ونحن في سيارة رامي، سمعت ماريز تهمس لرامي أنها عندما دخلت غرفة الدكتور إسحاق لتأخذ هاتفها الذي نسيته، رأت صباح تتأكد من سلامة جهاز التنفس وتدثره بالغطاء، تعجَّب رامي وقال بصوت مسموع: "وماذا في ذلك؟!"، همست مرة أخرى ماريز أن صباح بدت مرتبكة وأن شعورًا سيئًا ساورها ولا تدري لماذا! حينها قال رامي: بلطف إن ما تقوله ليس له معنًى وإننا لم ننم منذ وقت طويل وإن عقولنا مشوشة، وبدت ماريز بالفعل مشوشة، كما أنني بدأت أشك في سلامة عقولنا جميعًا وعلى رأسنا إسراء.

إسراء سمك

لا أستطيع أن أصف شعوري، إنه خليط من الحزن والضياع، لا أعلم ماذا يحدُث معي؟ دائمًا أشعر أن هناك سيدة برفقتي أو على مَقرُبةٍ مني، وكأنها تقف خلفي باستمرار، أحيانًا تهمِس في أذني، وحينما أخاف تضحك ضحكات مُخيفة! لا أستطيع أن أُحصي عدد المرات التي تلفَّت فيها ورائي ولم يكُن هناك أحد، يحدث هذا عندما أكون واعية؛ لأنني مؤخرًا أُصاب بنوبات إغماء كثيرة وأعراض لم أختبرها من قبل! شيء مظلم وجِدّي يُلاحقني أكثر وأكثر، وارتباط يزداد قوة بي؛ يُلاحقني ويراقبني طوال الوقت، وهذا شيء غير بشَري، كأنني دخلت لُعبة مُخيفة وأشعر أنني أنحدر نحو الظلام بعمق.

وبهذا التخطيط من السيدة بقيث معزولة بداخلي عن حازم وأولادي وعن أهلي وأصدقائي وعن الناس، وبِتُّ إنسانة أخرى مُغيَّبة وكئيبة، وهذا ما أرادته هي لتدخل عقلي وحياتي، وتفصلني عن الواقع وأعيش معها في عالمها وأخضع لسيطرتها، فأنفِّذ أوامرها التي لم تكُن واضحة تمامًا! إنها تُريني لمَحات من حياتها البائسة رغمًا عني بين الحين والآخر، إنها تعبَث بحياتي وهذا يُرضيها، وأخاف باستمرار وأكره هذا الشعور، لكن الخوف يتحداني كل يوم ولا أعلم كيف أتغلَّب عليه؟

فتحت عيني ووجدتُ كلَّ شيء بلون أبيض من حولي! فظهر حازم فجأة أمامي يتفحَّصني ويصيح لأحدهم أنَّني بدأت أسترد وعْيي! وحين رأيت الدكتور يسألني عن عاداتي الغذائية ونمط معيشتي

الذي أدى إلى كل هذا الإرهاق، علِمتُ أنني في المستشفى، كان رامي وماريز مع حازم يتابعون تعليمات الدكتور التي بدأت تخفت حتى ضاعت في الهواء ولم أعُد أسمع أيًّا منها، فقط أراهم ولا أميز شيئًا بعينه، إن الصُّداع يتملَّكني بالكامل ويحصد كل ما أملكه من قُدرات، اعتدت الاستفاقة من إغماءات متكرِّرة لا أتذكَّر شيئًا بعدَها على الإطلاق، لم يحدُث لي شيء مماثل من قبلُ، كانت ماريز تحاول الاتصال بأحدٍ ما وقد سمِعت صوت رنة هاتفه على الناحية الأخرى، لكنه لم يجِبْها فقال رامي:

- أكيد نايم.. شوية وهكلِّمه متقلقيش.

جلست ماريز بجانبي وأمسكت يدي وربتت عليها وقالت:

- متقلقيش.. صباح كانت مخضوضة وناوية تقدِّم بلاغ باللي حصل، لكن خالد فهِّمها اللي بيحصلِّك وعلشان خاطره طبعًا قالت: إنها هتحاول تنسى الموضوع.

فزعت ولم أفهم شيئًا! وسمِعت صوت خالد يتحدَّث إلى رامي عبر الهاتف ويقول: إنه يخاف أن ينتقل إلى الدكتور إسحاق فيروس من المستشفى؛ لأن مناعته ضعيفة، ربّت حازم على كتِف ماريز لتقوم فجلس مكانها بجانبي، ثم نظر في عيني بجدية وقال:

- إسراء.. إسمعيني كويس يا حبيبتي، اللي بيحصلِّك ده بنسبة كبيرة.. حالة تلبّس، أنا عقلي مش موافق على اللي بقوله ده، لكن أنا معنديش حاجة تانية أقولها، كل أفلام الرعب اللي شفتها في حياتي كانت بالنسبة لي مجرد أفلام، لكن النهارده أنا بشوف مراتي بتتحوِّل

قُدام عيني لفيلم.. كل حاجة بتتحوِّل؛ ملامحك.. صوتك.. طريقتك وأفعالك، هل ده مرض عقلي؟ مفيش في العيلة تاريخ لِدَه، ولِيه ظهر دلوقتي لو مرض عقلي فعلًا؟! علشان كِده أنا مستبعد الموضوع ده، إسراء.. إنتي اتهجِّمتِي على بيت رامي وقطَّعتي قُماش الصالون! وكُنتي عايزة تموِّتي صباح! غير طريقتك العجيبة مع نزار ورامي!

حينها سردت ماريز كل ما حدَث وأنا لا أتذكّر كيف حصلت على مِفتاح شقة رامي؟! ولماذا؟ وكيف فعلت هذا بالصالون؟ ولماذا؟! والأصعب هجومي على صباح ثم على نزار! أنا مشوَّشة.. أريد أن أموت فأرتاح وأُريح كل مَن حولي، لقد أصبحت حالتي مُزرية، أكمَل حازم الذي بدَا غير متعاطفٍ هذه المرة وهو يُمسِك بمُصحفٍ في يده:

- الست اللي مسيطرة عليكي أيًّا كان هي مين، إنس ولا جن إنتي أقوى منها، قاومي وحاولي تتمسّكي بإسراء، لازم تبقي كويسة علشان الولاد، المدارس قربت والأولاد هيرجعوا من الساحل، مش عايزهم يشوفوكي في الحالة دي، علشانك وعلشاني.. وعلشان أهلك.

بدأتُ أبكي وهو يقول:

- الست دي عايزة توصَل لحاجة أو لحد مش عارف؟! وبتستخدمك لِيه إنتي بالذات معرفش! لكن أكيد هنعرف، حاولي تعرفي منها هي عايزة إيه، أنا حاسس إني بدأت أهذي أنا كمان، بس أنا شُفتها ومش قادر أتجاهل ده، عمومًا كل اللي طالبه منِّك ترجعي تصلِّي تاني وكل يوم تقري ولو صفحة في القرآن، مفيش حاجة هتقدر تقرَّب مِنك

تاني.

وقبل استيعاب ما قاله حازم دخل نزار الغرفة حاملًا بيده نظارة الميتافيرس، كان هادئًا إلى حدٍّ كبير، نظر إلينا جميعًا وإليّ بالتحديد وقال:

- الحمد لله على سلامتك.

أردفت ماريز بقلق:

- نزار.. إنت كويس؟ قلقتني لمّا مردتش.

ربت على رأسها في حنانٍ ولم يجِبْها وأكمَل وهو يجلس على كرسي في مقابلة السرير وينظر لنا:

- إنتم أصحاب عمري.. وعارفين عني كل البلاوي قبل الحاجات الحلوة، أنا كان معايا "تشارلي" أول يوم تصوير.

صاحت ماريز:

- مخدرات تاني يا نزار؟!!

قال نزار بصوت حزين:

- المشاكل مع كارول مبتنتهيش، وفي الآخر أخدِت البنات وسافرت لبنان؛ لأن صوتنا العالي في الخناقات عمل للبنات تروما، ملقيتش قدامي حل علشان أهرب غير ده.. حاجة تِقرف أنا عارف.

نظروا له نظرةً محايدة لا تحمِل شفقة ولا بغضًا. أردف نزار دون انتظار ردٍّ:

- في حاجة غريبة حصلت أول يوم تصوير في القصر، شُفت ست لابسة فستان أحمر وطاقية سودة، كنت فاكِر إن كل ده هلاوس.. مكنتش عارف أفصل هل هي إسراء ولا واحدة تانية؟ لكن بنسبة كبيرة شُفتها إسراء، أنا بقول الكلام ده؛ لأن ممكن يساعدنا في حاجة.

حينها ساعدتني ماريز على الجلوس وأنا في ذهولٍ، إنها نفس السيدة في أحلامي وهي التي رأيتها في الحمّام، وهي من أشعُر بها على الدوام، فُغِر فاه الجميع وأمسَك رامي برأسه وسار بعصبية في كلِّ الاتجاهات وهو يردِّد بصوتٍ حائر:

- يا رب.. مِش معقول!

قال حازم وقد بدَت على ملامحِه مشاعر مختلطة:

- الست دي هي اللي بشوفها أنا وإسراء! تبقَى جِن دي ولّا شَبَح؟ الموضوع مش مرض عقلي فعلًا، إحنا مش مرضَى.

نظر إلينا نزار بحيادية أيضًا وقال:

- لكن أنا موقفتش "تشارلي" نهائيًا، وفي يوم مأخدتوش؛ لأني كنت عايز أتأكِّد هل وأنا فايق هشوفها؟ وفي نفس الوقت كنت بقرَا كِتير عن تاريخ القصر، بعدها كانت في ست بتجيلي في الكوابيس تقريبًا كل يوم، أنا كنت بشوف القصر كل يوم وكأنه مليان ناس وخدَم! وفي مرة شفت نار جوه القصر من بلكونة بيتي، ولمّا نزلت ملقتش حاجة! مكنتش فاهم الهلاوس دي بسبب "تشارلي" ولّا أنا مُخي ساح؟ لحد ما طلعت من المستشفى وقولت لماريز سيبي النضارة دي

تسلِّيني وأنا لوحدي؛ لأني في القصر كنت عايز أعرف دكتور إسحاق بيشوف فيها إيه؟

كان واضحًا تملُّك القلق من رامي. أكمَل نزار حديثَه بشيءٍ من الشكِّ:

- نفس الست شُفتها جوَّه النضارة! مكنش جايلي نوم ولبست النضارة وعمَلت جواها بيت على البحر وبدأت أبنيه على مزاجِي، كنت عايز أهدَى علشان أنام، وفجأة جوَّه النضارة بدأ البحر يبقَى صحرَا، والبيت بيتبدِّل واحدة واحدة جوَّه النضارة لحد ما شُفت قصر البارون! ودخلت جواه! شُفت البارون مع نفس الست، كانت طيبة وبشوشة! لكن فجأة وبشكلٍ عجيب كان القصر بيتحوِّل من صُبح لِليل والعَكس، وكأن حد بيجَرِّي أحداث فيلم علشان أشوف النهاية، وسمِعت صوت صريخ لسِت فكَّرني باليوم اللي سمِعت بترَا بتُصرخ فيه في التليفون! وبعدين سمِعت صوت واحد بيبكي بصوت عالي، وصوت صُراخ ناس كتير في القصر والليل والصبح بيتبدِّلوا في القصر، حاولت أقلَع النضارة وقتها لأني حسيت إني مش لوحدي، مقدِرتِش، كان فيه إيد باردة ماسكة النضارة مِثبِّتاها فوق راسي علشان مَقلعهاش! فِضِلت أقاوم الإيد لحد ما حسّيت إني مش قادر أتنفِّس، معرفش إيه اللي حصل بعدها! ممكن أكون نمت وصحيت! بعدها كنت شايف خيال نفس السِّت بيتنقَّل من رُكن لرُكن في الشَّقة، هل كان مُخي مشوش؟ هل بيتهيألي؟! أنا مش فاهم حاجة، هل الست دي أخت البارون هيلانة؟ لما ماريز كلمتني حسِّيت إني عايز أحكيلكُم ونفهم سوَا.

نظر رامي إلى ماريز وهو يأخُذ من نزار نظارة "الميتافيرس" ويتفحصها قائلًا:

- كِده الرسالة بدأت توضح.

ماريز خياط

في الصباح الباكر وفي طقس غائمٍ ذهبتُ إلى، "كنيسة البازيليك" أو "كنيسة البارون" أو "كاتدرائية العذراء مريم"، صرحٌ أتأمله وأستلهم منه القُوة، هذا المَبْنى العتيق الذي يميز قلب ضاحية "مصر الجديدة"، أو "هليوبوليس"، أو "مدينة الشمس".

تقف الكنيسة كزهرةٍ برِّية في نهاية شارع الأهرام، وتتوسط ميدانًا كبيرًا يُعادل ضعفي ميدان "دي فوج" "Place des Vosges" في باريس، يخرج من الميدان سبعة طرق مختلفة، وللكنيسة خمسة أبواب، اثنان على جانبيها وثلاثة عند المدخل أقِف أمامهم؛ ثلاثة أبواب متساوية الحجم من الخشب، جميعها تُشبه في تصميمها أبواب القصور أو القِلاع الحربية، إنه عمل فني بديع تبدو عليه عظمة تصميم الفن الحديث لـ "ألكساندر مارسيل" أكثر من تصميم الطراز البيزنطي، وتشابهت واجهة البازيليك ذات القُبة الكروية المميزة بكنيسة آيا صوفيا بإسطانبول والتي أصبحت مسجدًا فيما بعدُ، وتعتبر الأعمدة الجراتينية المتراصَّة والمصقولة بشكل متجانسٍ والأقواس المزخرفة إلى جانب السلالم الجرانيت عند المدخل أحدَ معالِمها المميَّزة، كلما أراها أتذكَّر البارون إمبان الذي شيدها بشكل لا إرادي.

لكن هل ربط حقًّا البارون الكنيسةَ بالقصر عبْر سرداب تحت الأرض؟ ولماذا؟ وإذا كان حقيقيًا، هل هذا سبب لسماع أصوات الترانيم في القصر؟ هل رُفات البارون الراقد بداخل الكنيسة

سيجيب عن الأسئلة التي تسبَّبت في تشوش عقولنا؟ لا أُريد أن يضيع حُلم رامي بين ما نعيشه وبين ما يرفضه عقلي بقُوة، وكل هذا يدفعني أن أفكِّر في تناقضات الحياة، في عمري وكل تجاربي التي أثقلت شخصيتي، وأتساءل.. ماذا يحدُث عندما تكسرنا الحياة؟ لا شيء .. ولا يوجد ضمان بأننا سنتعلَّم، يكفي أننا نحاول أن نتعلَّم، يقولون إن الندَم يأتي من العيش في الماضي الذي انتهَى بالفِعل، وأن القلقَ يأتي من العيش في المستقبل الذي لم يأتِ بعد؛ لذلك أحاول دائمًا أن أعيش في الحاضر، الذي يلُفُّني بسلامٍ ويجعلني مُمتنة لكلِّ ما حدَث في الماضي، هل كان من الممكن أن أقترب من رامي لولا أحداث قصر البارون المُريبة؟ هل كنت أتخيَّل عودة رامي من الأساس وتواجده مرة ثانية في حياتي بعد كل ما حدث؟ والأهم أنني لم أتخيل قط أن يعود شعوري الذي ظننته مات برحيل زوجي الحنون شريف، ثم هذا القصر الذي قضيت أغلب سنوات عمري أمامه، أسمع الكثير من الأساطير ولا أصدِّقها، ثم يجيء اليوم الذي لا يكون لديّ اختيار إلَّا تصديق كل هذه الأساطير من خلال تجربتي الشخصية!

والآن، أشعُر بسلامٍ وهدوء نفسي لما أعيشه هذه الأيام مع رامي، وكأن روحي قد رُدَّت إليّ من جديد، وكأن الحياة بعد كسري تُعالجني وترعاني، والشيء الذي أزعُم أنني تعلَّمته حتى الآن، أننا نتغيَّر كثيرًا في أعمارنا القصيرة، وأن هذه الدنيا عجيبة ليس لها قانون موحَّد.

دخلت أخيرًا الكنيسة بعد أن أشبعني فرد الأمن على بابها بنظرات فضولية، الهدوء بالداخل يجبر النفس على الاستسلام إلى معاني

الاحترام، عندما وصلتُ إلى المذبح الرئيسي رفعت بصري إلى الأعلى، إلى نهاية القُبة نصف الدائرية أعلى المذبح، وتأمَّلت أيقونة "السيدة العذراء" وهي تفتح ذراعيها المباركين ويحيط بها على الجانبين ملاكان في خشوع، حينها صلَّيت بكلِّ جوارحي أن أعيش القادم من عمري في سلام، وأن أكون أمًّا جيدة لابنتي، صليت أن تتقبَّل رامي كأبٍ لها، انتهيت وشعرت بسكينة تغمرني، وعندما وقَفت أمام جثمان البارون الذي ذكّرني بنزار أخي، وكل ما مررنا به في القصر، تساءلتُ.. تُرى ما هو سرّك الذي حملته معك إلى قبرك أيها البارون؟ وبينما أفكّر رأيتُها أمامي! ابتسمت السيدة وهي تنظُر لي بنصف وجه خلف قُبعتها السوداء ثم سارت واختفت وكأنها قد دخَلت إلى بُعد آخر! إنها تُلاحقنا جميعًا!

أجهدت عقلي حينَها لكي أتجاهَل ما رأيت ولو لوقتٍ قصيرٍ، وقرَّرت أن أذهب إلى المستشفى لأرى دكتور إسحاق ، لقد نقلوه مِن غرفة الرعاية المتوسطة إلى غرفة عادية، لم يتركه رامي لحظة حتى اطمأن عليه، علمت أن نتيجة الفحوصات الطبية أكدت أنه يتناول أدوية منذ فترة طويلة محرَّمة دوليًا! وهذا شيء عجيب! بالتأكيد هناك خطأ ما، أحضرت قهوة رامي المفضلة وفطوره في طريقي إلى المستشفى، لم أحصل على قسطٍ كافٍ من النوم، إذ لم تُفارقني نظرات رامي الحنونة طوال الليل وكأنني أحلم.

عندَما وصلتُ كانت الطُّرقة خالية تمامًا والهدوء يسيطر على المكان، دلفتُ إلى الغرفة دون أن أطرق الباب، كانت صباح تحضِّر حُقنة لدكتور إسحاق ، عندما رأتني وقَعت الحقنة من يديها وبدت

مرهقة ومضطربة، وتذكَّرت على الفور يوم نسيت هاتفي في غرفة دكتور إسحاق ورأيت صباح مُرتبكة أو هكذا كان إحساسي! وضعت ما أحمِله على أقرب منضدة، قال أونكل إسحاق بوهن:

- ماريز حبيبتي صباح الخير.

ارتجَفَت يد صباح وهي تلتقِطُ الحقنة من الأرض وقالت:

- الحقنة اتكسرت.

اقتربت منها ومدَدتُ يدي لآخذ الحقنة وقلت:

- حقنة إيه دي؟

قالت بصوت مُتعب:

- دي فيتامينات.. كان دكتور خالد كاتِبهَا.

ثم قالت وهي تحمِل حقيبتها:

- هاجي لحضرتك تاني يا دكتور.. الحمد لله على سلامتك.

ودَّعها أونكل إسحاق وهي تخرُج ليدخُل رامي ويسألني:

- أخد الفيتامين؟

قالت صباح:

- معلش الحقنة وقعت من إيدي.. هجيله تاني.

أعطاها رامي نظارة الميتافيرس وقال بعطف:

- إنتي تعبتي معانا يا صباح، إرتاحي وتعالي، ويا ريت تشيلي

النضارة في أوضتي لو سمحتي.

خرجت من الغرفة ونظرات شكّي تلاحقها، في حين أراد أونكل إسحاق أن يستكمل نومه، خرجنا من الغرفة لأتابع خطوات صباح إلى أن اختفت، رمقني رامي بتعجبٍ وهو ينظر إلى صباح وقال:

- مالك؟

- الفحوصات بتقول: إن أونكل إسحاق كان بيتعالج غلط بقاله فترة، وإن العلاج اللي بياخده أثَّر على الكبد بشكلٍ مباشر، مِين بيديله الدوا؟ ده دوا محرَّم دوليًا.. يعني اللي يجيبه حد يعرَف طريقه، حد بيشتغل في المجال الطبي، أنا شكّيت في خالد؛ لأنه هو اللي بيعالجه، لكن خالد مش ممكن.. ده روحه في أونكل، معرفش ليه بحس صباح مُرتبكة؟

جحظت عينا رامي وهو يقول نافيًا:

- بتقولي إيه يا ماريز؟ لو خالد مش ممكن فصباح مستحيل.

أردفت:

- أنا افتكرت يوم ما أونكل كان في الرعاية، يوم ما فاق وانت كنت واقف مع خالد برَّه الأوضة، أنا نسيت الموبايل عنده.. لما دخلت أجيبه إتهيألي إنها بتعمل حاجة مُريبة وانا قولتلك.

- فاكِر.. وفاكِر برضه إننا كلنا كنا تعبانين، مِش صباح اللي تشكّي فيها للدرجة دي يا ماريز، أقصى غلطة صباح تعملها إنها تنسَى ميعاد دوا فلما تشوفيها وهي بتديهوله ترتبك.

ثم أردف رامي سريعًا في حيرة وكأنه يفكر:

- أصل صباح هتئذي بابا ليه؟ ده هو اللي مربِّيها وماما موصيَّة عليها!

- معرفش!

- إنتي عارفة إن خالد هيخطبها.

- بجد؟ لأ.

تحدَّث رامي مع خالد حينها عبر الهاتف يُخبره بنتائج الفحوصات، صُدم خالد وقال إنه لا بد أن يُدقِّق في الأمر ويبحث فيه، وربما نُعيد الفحوصات في مكانٍ آخرَ للتأكيد، وأنه سيراجِع مع صباح كل الأدوية، سأله رامي عن أهمية حقنة الفيتامينات التي يأخذها والده، فأجاب إنها تعليمات قديمة وبالتأكيد اختلط الأمر على صباح؛ لأنه لم يُعطِها تعليمات بإعطاء دكتور إسحاق أي شيء؛ لأنه بالفِعل تحت رعاية أطباء المستشفى، وأنه في طريقه الآن لزيارة دكتور إسحاق والاطمئنان عليه.

إسحاق محمد النحاس

لن تكُف الأرواح في "قصر البارون" الغامض عن الظهور، إن مهمتها الأساسية هي التواصُل من أجل هدفٍ محدَّد، وإذا كنا في أرضهم فنحن في أرض المعركة، لكن ماذا لو جعلت مني مطاردة الماضي هدفًا؟ لا يهم.. إن سلامة عائلتي هو ما يهم في الحياة، لن أدَع ما حدَث معي يحدُث مع ابني؛ لذلك لا بد أن أصارحه حتى وإن ظن بي الظنون، لن أتركه هذه المرة.

هكذا كان يفكِّر عقلي قبل أن أستيقظ من نومي، كانت جفوني ثقيلة ومرَّ بخيالي مشهد من الطفولة لم ينفصل عن ذاكرتي، كنت طفلًا لا يتجاوز عمره التاسعة واستيقظت في الساعة الثالثة صباحًا في إحدى الليالي، وكان أبي يقول أن هذه ساعة السِّحر القديمة، ورأيت في الغرفة شيئًا صغيرًا أسود يخرج من الأرض ويكبر شيئًا فشيئًا حتى تعملقَ أمامي، واحتضنتُ القرآن الذي كان يتركه أبي بجانبي دائمًا، احتضنته وقلبي يخفِقُ بشدة وقلت: "يا رب" فاختَفَى الكِيان على الفور، ومن وقتها أحتضن القرآن كلّ ليلة قبل نومي، ومنذ ذلك الحين أصبح الرجوع إلى القرآن يُريحني خاصة في أوقاتي الصعبة.

كنا في الصباح عندما أفقت من ذكرياتي، وحمدت الله أنني رأيت نظرة الحبِّ الحقيقي والخوف من فقداني في عيون ابني الحبيب رامي، أقدر هذا الإحساس الذي ظننت أنني لن أشعر به أبدًا، كان رامي بصُحبة ماريز وخالد ونزار، جلسوا حولي قبل خروجي من

المستشفى بساعات، أردفت بوهنٍ.

- رامي إوعى تكون قُلت حاجة لرنا؟

- إطمن يا حبيبي.

لاحظت أن نظارة "الميتافيرس" غير موجودة فسألت رامي عليها، قال إنه أرسلها مع صباح إلى البيت لأنه خاف أن تتلف، سألتهم:

- إسراء فين؟

سرد رامي بأسفٍ ما فعَلته إسراء في البيت وأكمل:

- لما نقلناها هنا وعملولها فحوصات قالوا محتاجة علاج نفسي وعملولها إذن خروج من شوية، حازم مش هيقدر يسيبها ومش عارف يقول لأهلها في نفس الوقت.

شعَرت بالشفقة عليها وعلى حازم وحينها قرَّرت أن أسرد قصتي ربما استطاع ابني حلّ اللغز معي:

- بعد كل اللي حصل معاك يا رامي لازم تعرف اللي حصل معايا أنا.

انتبه رامي بشدّة وكأنه كان في انتظار هذه اللحظة فأكملت:

- وأنا صغير كان جدك بيحكي حكايات كتير عن البارون إمبان وعن القصر اللي اتبنى على ربوة في وسط الصحراء، اللي هي مصر الجديدة دلوقتي، لما خلص بناء القصر في سنة ١٩١١ كان جدك صُغير، لكن الحكايات دي كان عارفها مِن أبوه اللي هو جدّي أنا، واللي كان صديق شخصي للبارون نفسه، بيحضَر معاه حفلات وبيشوفه

بشكل دوري، واتعرَّف مِن خلاله على المهندس اللي بنى القصر "ألكساندر مارسيل"، البارون زي ما حَب الهند حَب مصر؛ لدرجة إنه كتَب في وصيِّته إنه يندفن في مصر حتى لو مات في أي بلد في العالم، وحدِّد مكان الدفن في "كنيسة البازيليك" وهو اللي بناها، وفعلًا إتنقل جثمانه لمصر تنفيذًا لوصيته بعد ما مات في بلجيكا.

كان رامي وماريز في شدة انتباهِهما وتركيزهما وهذا ما أردت فأكملت:

- وكان جدي من أوائل الناس اللي اشترت أرض وبَنِيتْهَا جنب القصر، والدي جدَّد بيتنا مرتين وللعلم جدي بناه على أساس متين، جدِّي إتأثر جدًّا بالبارون وبالخواجة المهندس، جدك كان نِفسُه أبقَى مهندس لكن حُبِّي للطب غلَب، ووقَعت في نفس الفَخ معاك يا رامي، وكان نِفسِي تطلع مهندس مدني، وانتَ حبِّيت التكنولوجيا، ساعات الأب بينسَى إن ابنه مِش ملكه.. إنه إنسان مختلف وله طريق مُختلف في الحياة.

تنهَّدت لما رأيت علامات الرِّضا والارتياح على وجه ابني وقلت:

- كان دايمًا والدي يحكي إن البارون كان رجل أعمال كبير وكان بيسافر كتير، ودي حاجة معروفة وحواديت كتير عن البارون معروفة، لكن اللي مش معروف ومش مؤكَّد هو قِصة موت أُخته "هيلانة" في القصر، ومِن بعدها موت الخدَم واحد ورَا التاني، الأصوات اللي بتطلع من القصر بلّيل ودي أنا سمِعتها بنفسي وأنا صُغيَّر، وطِلعت إشاعات إن روح أخت البارون من بعد موتها مش

هادية، يعني روح غضبانة، وإن الأرواح دي بتفضل في مكان موتها، محدِّش مصدَّق وفي نفس الوقت محدِّش لاقِي تفسير لأصوات أغلب السكان حوالين القصر سمعوها، صوت الموبيليا اللي بتتنقل واللي سمعناه سوا في القصر، الصوت ده إبتدى من بعد بيع البيت في نص الخمسينيات، وبيع الموبيليا في مزاد علني، الحاجة اللي إنت متعرفهاش يا رامي إن الصالون والمرايتين اللي معاه وكمان وحدة الأدراج دول أبويا إشتراهم، كمان السُّفرة ومكتَب البارون، طبعًا بالنسبة لأبويا كنز وورِثته أنا، ومن وقتها بدأت أشوف وأسمع حاجات في البيت مش طبيعية، كنت صُغير ومِش فاهم.

سأل رامي:

- زي إيه؟

- زي السِّت اللي بتشوفوها كُلِّكم في هيئة إسراء مؤخرًا.. لكن أنا كنت بشوفها بشكلها الحقيقي، بشكل يشبه صورة السِّت اللي في الصالون.. ومِش متأكد هل دي أخت البارون ولّا مجرد صورة لواحدة مش معروفة؟

أردف رامي:

- حازم بيقول: إن هُوَ وإسراء شافوها في الحمَّام عندهم.

- مصدَّق؛ لأني على فترات كنت بشوف البارون نفسه في الصالون! زي ما أنا شايفكم كده!

تغيرت نظرات نزار وبدَا مُتعجبًا كأنه اكتشف شيئًا وقال:

- هل البارون كان شخصًا طيبًا؟

- والدي كان بيقول إنه كان رجل حكيم وذكي، رجل أعمال بيسافر أكتر ما بيستقر في مكان واحد.

سألني خالد:

- بس يوم ما غطينا الصالون محكتليش الحكاية دي.

- زمان حكيت ومحدش صدَّقني، كلير الوحيدة اللي كانت بتصدَّقني، علشان كده كنا أصحاب وأسراري كلها معاها، وده ولِّد حُب نادر بينّا.

ابتسمت ماريز وسأل خالد:

- يعني الصالون ده فيه سر؟

شعَرت بغصةٍ في صدري وبُحت بسرٍّ مرضي لأول مرة:

- الصالون..!! الصالون ده فيه سِر ويمكن لَعنة، الناس كلها فاهمة إن الجلطة في المخ جاتلي من الزَّعل على موت كلير وعلى هِجرة رامي اللي كانت بدون علمي، لكن مش دي كل الأسباب، الصالون فيه وحدة الأدراج اللي كان فيها وصيِّة البارون نفسه، الوصية كمان الناس عارفة إنه كان عايز يندفن في مصر حتى لو مات في أي بلد تانية، لكن كان في حاجة تانية مهمة.. خريطة السرداب اللي تحت الأرض وبيوصل القصر بكنيسة البازيليك، إيه سر السرداب؟ حاولت كتير أفهم موصلتش لحاجة، لكن هو قايل في الوصية إنه قفل السرداب بعد حفره؛ لأنه اكتشف أنه هيبقى وراه شر كبير، وإن فيه

ناس كتير عايزة تفتحه لطقوس معينة، وإن الطريق لفتحه تاني مش هيكون إلا من خلال الخريطة اللي سايبها، والخريطة دي كانت ميراثي مع موبيليا البارون!

قالت ماريز:

- وباباك قدِر يحافظ على الوصية.

أردفت:

- والدي الله يرحمه مكنش مصدّق إن في خريطة السرداب والشر اللي وراه، لكن كان شايف إن من الأمانة تنفيذ الوصية، وفي يوم كنت في البيت لوحدي وقاعد في البلكونة مُرهق جدًّا وفجأة "سُكر" فِضِل يصرخ من غير سبب، وأنا كان صُداع رهيب مِسك في راسي، حاولت أسكِّت سُكر مفيش فايدة، فقلت أدخل آخُد دوا للصداع وبالمرة أجيبله لِب، شُفتها في الصالون زي ما أنا شايفكم دلوقتي، كانت قاعدة كإنها مستنياني، نظراتها حادة وبتتكلم بصيغة الأمر، كانت عايزاني أروح القصر وأدخل أوضة المرايات؛ لأن فيها فتحة السرداب اللي توصلها بكنيسة البازيليك، وإن الخريطة فيها مكان الفتحة في الأوضة بالظبط فين، غير كده هيبقى خطر على أساسات القصر لو قعدوا يجربوا يهدوا كل شوية حيطة منها، وقتها كنت متأكد إن دي هلاوس وإني خلاص خرّفت، تجاهلتها ومشيت باتجاه المطبخ وساعتها حسّيت بإيدها مِسكت كِتفي ووقَفْت معرفتِش أتحرَّك، قرّبت منِّي وقالت: إن عدم تنفيذ كلامها هيكون تمنه كبير، وبرضه هييجي اليوم اللي أعمل اللي قالت عليه، وبدأت عيني تزغلل

وأشوف ضباب، وبدأ تنميل في وشّي ودراعي ورجلي، حاولت أمشي وأسيبها لكن لقيت نفسي مش عارف أمشي! قعَدت تضحك قُدامي، حاولت أتكلّم معرفتش ودي كانت آخر حاجة شفتها وصحيت بعدها بكام يوم في المستشفى واكتشفت إنها جلطة في المخ، خليتني قعيد، طبعًا إكتأبت فترة، لكن دلوقتي بحمد ربنا إني لسّه واعي وبتكلم.

سالت دموع ابني أمامي وقام يحتضنني وهو يردّد: "أنا آسف.. أنا آسف"، كان شعور الرضا بداخلي في هذه اللحظة لا يوصَف، أرادت ماريز أن تُغير الموضوع فقالت وهي تمسح دموعها:

- أنا فهمت كده إن هيلانة إختارت إسراء علشان تفتح السرداب، يعني هي مسيطرة عليها؟

أجبتها:

- ده اللي شُفناه كلنا، هل كانت هيلانة فعلًا ولّا لأ؟ مفيش حاجة مؤكّدة، المؤكّد إن إسراء دلوقتي بقت في خطر.

- يعني هيلانة كانت شريرة؟

- بيقولوا إنها كانت شخصية جادة، لكنها كانت دايمًا بتعتقد إنها مش مهمة عند البارون، كانت مهمشة وده طبعًا خلّاها عايزة تثبت لكل اللي حواليها ولنفسها أولًا إنها مرغوبة وإنها مهمة، لكن لمّا وقَعت من القصر وماتت والبارون ملحقش ينقذها، فِضلت روحها مش مرتاحة.

لاحظت أن نزار يسمع أكثر مما يتكلم، وقال خالد:

- طيب ولو إسراء بقت كويسة ومبقاش لهيلانة سيطرة عليها هيحصل إيه؟

- هيلانة مش هتسيب إسراء تبقى كويسة، أنا اللي محيرني ليه إسراء بالتحديد؟ ليه مش ماريز أو أي حد تاني فيكم؟ عمومًا في أسئلة بنعرف إجابتها مع الوقت وأسئلة تانية مش هنعرف إجابتها لحد ما نموت.. كلملي بترا يا خالد، أنا عايز أروحلها مكتبها في القصر، كل اللي سمعته وأنا صغير له معنى دلوقتي!

اتصلَ خالد ببترا لكنها لم تجِبه، أغلق خالد الخط وقال:

- أكيد هترجع تتصِل.

دخل الدكتور ليطمئن على حالتي قبل المغادرة وأعطاني تعليماته، ساعدني رامي وخالد للانتقال من السرير إلى الكرسي المتحرِّك، قالت ماريز:

- موبايل حضرتك معايا يا أونكل، رامي قفله علشان منزعجكش.

خرجنا من المستشفى وأنا أحمد الله كثيرًا، لم أشعُرْ منذ سنوات بأنني لا زلت على قيد الحياة مثل هذه الأيام، لقد مَنَّ الله عليّ بتحقيق أمنية بعيدة، وهي عودة ابني إلى أحضاني، لا يهمني الآن في الدنيا إلا إرضاءه وتعويضه عن كل سنوات البُعد التي كنت سببًا فيها.

عند وصولنا إلى البيت ألحَّ رامي على خالد وماريز ونزار أن يذهبوا

لعملهم، لكنهم أصروا على الاطمئنان عليّ أولًا، دخَلنا البيت وكان مُظلمًا، تبتاع صباح طلبات البيت باكرًا قبل الزحمة، سمِعت صوت سُكر يصرخ وتذكَّرت أن طعامه ربما قد نفد ولم ننتبه؛ فتحت ماريز إضاءة غرفة الاستقبال ودلف رامي إلى الصالون لكي يفتح البلكون فعلقت قدمه في شيء وكاد أن يقع، فتح البلكون ورأيته يصيح وهو ينظر إلى الأرض:

- صباح!

هرعت مع خالد وماريز إلى الصالون فوجدنا صباح مُلقاةً على ظهرها، وغارقة في دمائها! وفي رأسها أثر جرح غائر! صرخت ماريز واحتمت برامي، وتسمَّر نزار مكانه من هول الصدمة، في حين جلس خالد بجانبها على الأرض كالمجنون، يتحسَّس الدماء السائلة في حالة أشفَقتُ عليه منها، كاد أن يفقد وعيه وهو ينظر إلى دمائها في يديه ويحاول إفاقتها، وبدَا على شفا الانهيار العصبي.

ورأيت وحدةَ الأدراج الخشبية مفتوحة وخاوية، دلفت إلى غرفة المكتب وكان ما توقَّعته.. الخزينة مفتوحة وخاوية أيضًا، إن القتل كان بغرض سرقة ميراث البارون الذي أتعبني لسنواتٍ، لكن من الذي يعلم قيمة ما أُخفيه بداخلهِ؟ وعندما رأيت قماش الصالون المُقطّع تذكرت إسراء!

والآن، وبعد كل ما رأيته أتساءل.. هل تكون إسراء أو مَن تُسيطر عليها قد قتَلت صباح بغرض سرقة الوصية؟ أم أن صباح عبثت بنظارة "الميتافيرس" مع أحدٍ ما؟ إذ إن الباب لا يوجد عليه آثار

اقتحام! وهل مِن الممكن للنظارة أن تُحرِّض على القتل في الحقيقة؟ لأنني رأيت فيها ما لا أستطيع حكيه لأحدٍ أبدًا!

ترَك رامي ماريز وأمسك بخالد يبعده عن جُثة صباح وهو يقول:

- نزار.. إطلب البوليس.

نزار خياط

لم أعترف يومًا بالألوان الصريحة، وأرى الدنيا دائمًا بلونٍ رمادي محايدٍ، لا أبيض ولا أسود، وعلى هذا الأساس أتعامل مع أركان حياتي المختلفة، فأنا بعيد عن خط الحلال والحرام في حياتي، أخلطهما ببعضهما من أجل أهوائي، ثم أبرر أخطائي وأخطاء مَن حولي؛ لأننا جميعًا بشر رماديون، لا نستطيع أن نعيش في اللون الأبيض أو الأسود كل الوقت، البشر يُخطئون ويحاولون العودةَ كل مرة إلى الطريق الصحيح، أما أنا فأحمل الكتاب المقدَّس في قلبي، ولا أذهب للقُدَّاس بانتظام، أستسلم للشهوات ثم أقاوم ثم أستسلم، وأظل أحاول في دائرة مفرغة، لكني أحب الله.

بعد مقتل صباح المفاجئ وفي دوّامة التحقيقات المكثفة التي لم أتخيلها أبدًا في دائرتنا المُقربة، فهذه الحوادث نقرأ عنها على مواقع التواصل الاجتماعي ونتعجب منها، وجاء مقتل صباح فعلّمني أن أي شيء ممكن حدوثه لأي إنسان في أي وقت، وبدأت أراجع حساباتي في الدنيا من جديد، أراجع حياتي ومبادئي، ماذا فعلت في الأربعين سنة؟ هل علمت نقاط ضعفي وقوتي؟ هل فهمت نفسي حقًّا؟

وأدركت أن زواجي كان حدَثًا هامًّا ومحوريًّا في حياتي، وأنه منذ أن التقيت بكارول لم يكنِ الحبّ هو أساس علاقتنا، بل كان العرض والطلب، فهي بنت فائقة الجمال من عائلة متوسطة المستوى ينقصها المال، وأنا شاب من عائلة كبيرة وغنية، لكن ينقصني شيءٌ هامٌّ وهو ثقتي بنفسي، أنني لم أتجاوز عقدة التنمُّر الذي تعرّضت

له في المدرسة وحتى الجامعة، فقط؛ لأنني قصير القامة، أحدَث هذا شرخًا في شخصيتي وهزني من الداخل بعنفٍ، وكنت أتظاهر بتجاهل كل من يتنمَّر عليّ، في حين أبكي وحيدًا وألعن علم الوراثة الذي جعلني قصيرًا مثل أبي، ولكي ألفِت انتباه مَن حولي إلى شيء آخرَ، وأزيد ثقتي بنفسي كان اهتمامي ببناء عضلات جسَدي أمرًا هامًّا، وانتقيت ملابس مختلفة الذوق وباهظة الثمن، ولم أقُدْ إلا سيارة صُنعت لي خِصيصًا "Special Edition Car"، واخترت الارتباط بكارول لتبقى تحت سيطرتي، ورأيت الحقد في عيون المتنمِّرين عندما رأوها بصُحبتي، وأحببتها؛ لأنني أستمد ثقتي بنفسي من وجودها، وبدأت أركز في حياتي العملية، وعندما رزقنا بابنتنا الأولى استطعت أن أُصلح من عاداتي بشأن تعاطي المخدرات شيئًا فشيئًا دون مساعدة طبية، كنت أُومِنُ أن منبع كل العادات والتصرفات هو العقل، وأردت أن أتحكَّم بما أستخدمه ولا أترك ما أستخدمه يتحكم بي، ربما لم تكن حالتي الطبية خطيرة أيضًا، وتغيَّرت صورتي النمطية عند المحيطين من شاب مستهتر لشاب نفض عن نفسه ثوب العربدة ولبس ثوب الجدية، ثم أصبح من أشهر المنتجين في مصر ولبنان، لكنني انتكست في سن الأربعين وهذا لم أكن أتوقعه أبدًا.

وأعترف أن خطئي الكبير في الحياة هو حُبِّي لكارول بعاطفتي فقط، لم يكن لعقلي مكان في علاقتنا، وتغاضيت عن عيوبها الكبيرة، أليست رمادية كالبشر؟ المهم أنني أجد سعادتي معها، ومع مرور السنوات وتلبية رغباتها الكثيرة تفاقمت عيوبها وتوحَّشت ولم أعُد

أتأقلم معها، وبدأ اللون الأسود يطغى على الرمادي في حياتنا، فقد استغلّتني ماديًا كثيرًا وكأنني أدفع ثمن حُبها لي! واستنفدت بإهمالها لي ولبناتنا واهتمامها بنفسها طاقتي وصبري إلى آخرهما، وبعد الضغط النفسي الذي واجهته في أول يوم تصوير في القصر، لم أستطع التعامل معها ومع طلباتها بشكل يومي؛ لذلك لجأت إلى شيء يهدئ أعصابي ولو قليلًا، شيء اعتدته قديمًا قبل أن ألتقي بها.. "تشارلي" أو الكوكايين! لكني دفعت ثمن ضعفي واستسهال جلب المخدّر لراحة مؤقتةٍ، وكان الثمن من صحتي وسُمعتي التي تلوثت إلى أجل غير مُسمًّى.

وأدركت أن الصبر على كارول وكتمان المشاكل من أجل الحفاظ على صورة اجتماعية معينة، أدى إلى عدم وضع حدود صحية في علاقتنا، وكانت المشكلة الأساسية هي أنا، فأنا لا أستطيع النظر في المرآة لدقائق لسببين؛ الأول هو غضبي على ما فعلته بنفسي وعودة صورتي المُسبقة عند دائرتي القريبة لشاب مستهتر، وأصبح ما أتعاطاه جزءًا لا يتجزأ من شخصيتي بداخل ذهني، إذ إنني لا أتخيل السَّهرة بدونِ مخدّرٍ، وأصبح جزءًا من المنظر العام وكأنني أتفاخر به، واستحالت السعادة أن تجد طريقها إليّ إلا عبر الكوكايين، أنتشي وأشعر أنني مَلِك، وأن صفاتي البشرية غير محدودة، وأسعد لوقت قصير وما إن يمر مفعوله حتى أعود إلى حال أسوأ من قبل تعاطيه.

والسبب الثاني: حدَث بعد أول يوم تصوير في القصر.. وهو أنني كنت أرى ملامحي تتغير باستمرار، أنام لساعات طويلة وأستيقظ لساعات طويلة وأتعب في الحالتين، وأُصاب بالصداع الشديد على

فترات متقاربة ولا أتذكّر أحداث يومي العادية، حتى إنني لم أعلم هل تعاطيت شيئًا في يومي أم لا! هذا قاسٍ.

واجتهدت أن أحصُل على معلومات عن شخصية البارون، لعدم وجود أكثر من مصدر موثوق فيه، وبما أملك من معلومات شككت أنه ربما يُريد إبلاغ رسالة بعينِها عن طريقي، أظن أنه يتلبَّسني كما تلبست أخته إسراء، لا أجزم بذلك ولا أشكك فيه بعد كل ما رأيت، فأنا أرى ملامحي في المرآة تشبهه أحيانًا، أم أن هذا تأثير المخدر على عقلي؟ لا أدري، لكنني بعد مشاعر متضاربة بين الرفض والقبول، قرّرت أن أستسلم لهذه الفِكرة ربما فعلت شيئًا ينقذ إسراء وينقذنا جميعًا مما نحن فيه؛ لأن الوضع أصبح سيئًا جدًّا.

وأصبحت إسراء في دائرة المشتبه فيهم؛ إذ أن الأقوال أكدت محاولة إسراء ذبح صباح من قبل، وشككنا كلنا في إسراء حتى حازم زوجها، إذ إنها كانت تختفي من مكانٍ لتظهر في مكانٍ آخر بشكل غريب! ولم تكن هناك كاميرات مراقبة حول البيت لنتأكد من شيء، ولا يوجد كسر بالباب، وهذا يعني أن صباح فتحت للقاتل الباب، ولم يجد رجال البحث الجنائي أداة الجريمة أو بصمات، كما أن الشرطة لم تجد هاتفَ صباح إلى الآن، لكنهم علموا من شركة الاتصالات أن آخر رقم هاتفته صباح وأرسلت له رسائل كان رقم الدكتور إسحاق، وأنه لم يستقبل رسائلها إلا بعد ساعات من إرسالها، وكانت المفاجأة.

كنت بصحبة رامي ودكتور إسحاق وماريز وحازم وإسراء في مكتب رئيس المباحث، ضغط دكتور إسحاق على هاتفه وسمِعنا

رسالة صوتية من صباح أصابتنا بصدمة نفسية حادة.. قالت بنبرة خائفة خافتة وتتحدث بسرعة كبيرة:

- دكتور إسحاق .. حاولت أكلمك كتير تليفونك مقفول، كنت عايزة ألحق أعتذرلك، أنا خُنتك وخُنت مدام كلير، إنتم ربتوني وعلمتوني.. أنا ما استاهلش حُبكم ليّا.. أنا خاينة وعلشان كده اتخَنْت وكُنت مجرد أداة مش أكتر.

بكت صباح بحرقةٍ لثوانٍ وسط ترقُّب الجميع واستكملت حديثها بسرعة.

- أنا هحكيلك كل حاجة من الأول؛ اتعرَّفت على خالد الشافعي من المستشفى من قبل ما يتابع حالتك في البيت، يعني معرفتوش هنا في البيت زي ما كلكم عارفين، كان عاجبني لكن كانت علاقتنا سطحية، ولما شوفته بيزورك في البيت وعرفت إن باباه كان صاحب حضرتك، مرضيتش يومها أسلِّم عليه وعمَلت نفسي نايمة، كانت مدام كلير في أواخر أيامها، ولما سألتها عليه شكَرت فيه جدًّا وقالت إنها بتعتبره زي رامي وإنه كان تلميذ حضرتك، شفته تاني يوم في المستشفى وقولتله إني شفته عندكم وعرِف علاقتي بالعيلة، بعدها بدأت أشوفه بشكلٍ شبه يومي تقريبًا، واتطورت علاقتنا وبقينا أصحاب، أنا كنت بحكيله كل حاجة عن حياتي وأنا حياتي مفيهاش غيركم، حضرتك كنت دايمًا تتكلم على القصر والبارون، ودايمًا كنت بشوف حضرتك تفتح الأدراج اللي في الصالون والخزنة وكأنك بتطمِّن على حاجة مهمَّة، عُمري ما اهتميت، لكن لما خالد عرِف منِّك قصة قصر البارون، فضوله خلّاه يدوَّر كتير على تاريخ القصر،

وموصلش لمعلومات تؤكد حاجة معينة، فكان بيفكر في الصلة بين عيلتكم وعيلة البارون، وإيه اللي ورثته عن والدك يخُص البارون، لحد ما انت حكيتله وبدأ خالد يفكر إيه أهمية وصية البارون؟ وليه كل السنين دي مع عيلتكم مستخبية؟

انقطعت الرسالة وبدأنا نستمع إلى رسالة جديدة وقد تماسك صوتها ونحنُ جميعًا في ذهول تام:

- في الوقت ده بدأت أشوف مريض أجنبي ومراته بدءوا يتردِّدوا على خالد في المستشفى، مرة في التانية حسِّيتهم بقوا أصحاب، وبدأ خالد يكتّر من زياراته لحضرتك، لحد ما اعتبرته زي رامي واتفقت معاه إنه يتابع حالتك بصفة رسمية وبشكل دوري، ولما بقَى خالد الدكتور اللي بياخد باله من صحتك والابن البديل اللي بياخد باله منَّك وبيسليك؛ رنا وثقت فيه، وأنا كمان، وكان عارف إن علاقتك برامي مش كويسة، وبدأ يتقرّب منك على المستوى الشخصي أكتر، وبما إننا بنشوف بعض بشكل دوري بدأت علاقتنا تتطور أكتر، بعدها صارحني إنه معجب بيّا، وبدأ يفهمني إننا لازم نراقبك علشان نحميك؛ لأن فيه منظَّمة دولية بتخطط لاغتيالك وسرقة أوراق مهمة عندك، ومن الأفضل إننا نديلهم الأوراق دي؛ لأن مفيش حد هيعرف يقف قصادهم، ورغم إن الكلام كله ساذج لكن أنا كنت حبيته خلاص وتحت تأثيره، خاصة بعد ما وعدني بالجواز أول ما ظروفه المادية تتحسن، واتعلقت بخالد بشكل مرضِي، كنت بحس إني مش عايشة لو مشفتوش، كنت بخاف يسيبني لأني مش هلاقي حد زيه، ومن بعدها وأنا بعمل أي حاجة يقولي عليها، كنت عايزة أرْضِيه وبس،

خالد كان بيديك أدوية تضعف حالتك الذهنية، لكن على فترات علشان يبان إنك بتتعب وبتخِف عادي، يمكن تقول مكان الورق لوحدك أو لما يسألك، أوقات كتير قبل ما يرجع رامي كنا بنحطلك منوم في الأكل، وكنا بندور على الورق ده في البيت، رغم إني عارفة مكانه لكن مكنتش بقوله علشان يفضل معايا، وفي نفس الوقت كنت عايزاه ياخُد الورق ويبيعه للراجل الأجنبي ده وبكده نحميك ونتجوِّز زي ما أقنعني، لكن النهارده بس عرِفت كل حاجة، خالد جِه الصبح قبل ما يروحلك المستشفى، دخَل يعمل قهوة وساب الموبايل برّه، لقيت واتساب كتير من بترا وعرفت من طريقتها إنهم على علاقة ببعض! مش بس كده، دي قالتله يخلَص منّي بأي شكل لأن الخواجات جايين ياخدوا الأوراق، لما خرج من المطبخ مرضيتش أقوله حاجة وعملت نفسي عندي صُداع، فقال: إن الورق اللي في الأدراج القديمة اللي في الصالون ده مالوش لازمة، ولازم نفتح الخزنة بسرعة، أنا قولتله إني مصدَّعة جدًّا، وهو دلوقتي بيجيب دوا من العربية.

سمعنا جرَس الباب فبكت صباح بصوت خائف وهي تقول:

- أنا مش عارفة أعمل إيه؟ هحاول أثبتلك إنه كداب وخاين.. سامحني يا دكتور أرجوك، أنا هسيب البيت لأني مش هقدر أعيش معاكم بعد كده، وأوعدك مش هتشوفوني تاني.

حينَها سمِعنا صوتَ فَتْح البابِ وهي تبكي وسمِعنا صوت خالد يقول:

- ياللا مفيش وقت.. فين مفتاح الخزنة؟ إيه ده بتعيطي ليه؟

قالت صباح:

- خلاص يا خالد عرفت كل حاجة ودكتور إسحاق كمان هيعرَف.

قال خالد:

- يعرف إيه؟

- إنك عايز تسرقه وتبيع اللي سرقته، وإنك كنت بتديله دوا غلط طول الوقت، وإنك خَطَّطت لكل حاجة من الأول علشان يثق فيك ويعتبرك إبنه وإن..

قاطعها خالد محتدًّا:

- إنتي اتجننتي ولا إيه.. عمومًا لو قولتي من هنا للصبح محدِّش هيصدقك، ساعتها هقول: إني كنت هتجوزك ورجِعت في كلامي وعلشان كده محروقة واخترعتي قصة.

قالت صباح بعصبية:

- هوريله كل حاجة على الموبايل، أنا مش بمسح حاجة.

حينها سمِعنا أصواتًا متداخلةً وسط صُراخ صباح المكتوم وارتطامًا على الأرض وانتهت الرسالة الصوتية!!

وكأن هناك مَن رمانا بحَجرٍ كبير فوق رءوسنا من هَوْل الصدمة، تحفَّظ رئيس المباحث على الهاتف، وتأثَّر رامي بشدة؛ لأنه كان أحد الأسباب التي جعلت من أبيه هدفًا بإهماله له، بينما أشفقت على

خالد، كيف لرجلٍ تربَّى ونشأ في بيئة صحية مثل عائلته، وأصبح طبيبًا ذا سُمعة لا غُبار عليها أن يصبح خائنًا ولصًّا وقاتلًا! فقط من أجل المال؟!

خالد الشافعي

هؤلاء الحمقى يظنون أنني سأفضِّلهم على الدولار؟ ومَن منهم إذا جاءته الفرصة سيفضِّلني على مستقبله؟ إن الأنانية هي أساس الحياة مهما تحدَّثوا عن أهمية العطاء، وهذا الكلامِ الفارغ، ثُم منذ متى بات حُب المال عيبًا؟ إن المال هو السند الحقيقي في هذه الدنيا، هو الصديق الذي يَدعَم، وهو سبب رئيسي لاحترام الناس وهيبتهم لمن يملكه، وهو الدافع الذي يجعلني على قيد الحياة إلى الآن؛ لأنني سأسعد وأعوِّض ما افتقدته فقط بالمال، ولهذه الأسباب عاهدت نفسي أن أفعل أي شيء للحصول على المال مهما كلَّفني الأمر من تضحيات.

أتذكَّر حينما فقدت أبي فقدت الكثير من الناس معه، هكذا هي الدنيا، المصالح تسود والناس تساعد بعضها البعض فقط كدين واجب السداد، فإذا تهاونت في سداد دينك فأنت تقضي على دائرة مهمة، وبعد أن سدَّد أغلب مَن حولي دينهم لأبي بطرقٍ مختلفة معي تلاشوا، البعض يتلاشون في دائرة الدنيا، والبعض الآخر يتلاشون عن عمدٍ، تقبَّلت بقاء القليل وبصفة متقطعة، وإن كان مجرد سؤال عبر الهاتف عن أحوالي كل فترة، وكان من طرائف الدنيا أن أبي لم يكُنْ يُحب الدكتور إسحاق محمد النحاس، وهو على رأس قائمة قصيرة ممن تبقَّى في حياتي بصفة دائمة! كان إسحاق عطوفًا وكريمًا معي؛ لذلك كنت أضعف بداخلي تجاهه أحيانًا، لكن عندما أستعيد ذكرياتي مع أبي لا أتعاطف معه على الإطلاق، وأرى عطفه وحبه لي ندمًا على أفعاله مع أبي، أتذكّر أيام انعزل فيها أبي مُحبطًا

ومكتئبًا، أتذكّر أيام اكتئاب أمي، لقد تناسى إسحاق ما فعله بصديقه أيام شبابهما كما أخبرني أبي.

قبل أن يصبح دكتور إسحاق هذا الشخص الطيب الذي يراه الجميع، كان شخصًا أنانيًا حادّ الطباع، لا يأبه لقلق أو حزن أقرب الناس إليه، وكان أبي دكتور أحمد الشافعي دفعته وصديقه المقرَّب، وقد خاضا الكثير من المعارك معًا في بدايتهما حتى أصبحا على عرش تخصص جراحة المخ والأعصاب في مصر، لم يكن هذا ليرضي غرور إسحاق الذي كاد لأبي في الوسط الطبي بكل الطرق ليلوث سمعته "بغير قصدٍ" كما قال، إنه يسرد أخطاءه الطبية في بداياته على سبيل المزاح، ليكون في العقل اللاواعي عند المستمع فكرة سيئة عن أبي، أو بمعنًى أدق عن الطبيب.

وعندما أمسك دكتور أحمد الشافعي بطرف خيط أبحاثه الذي كان طَفْرة في إجراء جراحة جديدة في عمليات المخ والأعصاب، أحبطه إسحاق بشدة وغمره بسيل من الأدلة التي تؤكِّد كذِب نظريته، وأنه بتجربتها ربما يعرِّض حياة مريض للخطر وحياته هو للسجن، تناسى أبي الأمر لثقته برأي صديقه المقرب إسحاق ، وبعد أن انغمس أبي في روتينه اليومي الذي لا إبداع فيه، استغل إسحاق خيط نظرية أبي وعدَّلها ليصبح هو صاحب الاكتشاف، الذي هو بالأساس خلاصة سهَرِ وتعب وبحث أبي، وأعلن إسحاق عن بحثه في أحد المؤتمرات الطبية الدولية، وتلقَّى كل التقدير والشمعة الطبية الطيبة، دون أدنى ذِكْر لاسم الباحث الحقيقي صديقه العزيز أحمد الشافعي، وذاع صِيته أكثر وأصبح من مشاهير الأطباء، وكثر

المرضى في المستشفى والعيادة من مصر وخارجها، وبذلك أصبح من أغنى الأطباء في مصر أيضًا، وفاز في جولته هذه كما يفوز دائمًا، فالفائزون يأخذون كل شيء في نهاية الأمر.

لذلك أحببت تفكيري بشكل غير نمطي، أنا لن أُعادي الرجل وهو ضعيف وقعيد، أعلم جيدًا أن المرض يكشف حقيقة الإنسان لنفسه، ويجبره على تذكُّر كل ما فعله في الماضي، ولا يُريد أن يذكره حتى بينه وبين نفسه؛ لذلك كنت أتعمَّد الضغط على أعصابه بأن أردِّد أن أبي كان يحبُّه حبًّا جمًّا، وأنه كان حزينًا في سنوات عمره الأخيرة لسبب لم يُفصح عنه، وعندها أتلذذ بنظرة الندم والحسرة التي تقتله بداخله ألف مرة، وقرّرت أن أستغله، ونجحت إلى حدٍّ بعيد، فكان أحيانًا يُغدق عليّ المال وكأنني ابنه الحقيقي، أعطاني الكثير من النصائح، لكن بداخلي بقيت صورة أبي الذي سُرِق حلمه وهُزم أمام عيني.

وكانت بترا صديقتِي المقربة منذ الطفولة وكنا زملاء دفعة واحدة في المدرسة، وظلت صداقتنا لسنوات الجامعة وما بعدها، لكننا ابتعدنا منذ أن تزوَّجت بشكل سريع لم أتوقّعه، وبعد طلاقها عادت صداقتنا من جديد، كانت مشاعرنا تجاه بعضنا البعض تتأرجح بين الحب تارة وبين الصداقة تارة أخرى، علاقة بدون إحساس واضح أو مسمًّى محدَّد لكنني أثقُ بها إلى حدٍّ معقول.

وعندما بعثت بترا "ناثان وجوليا" إلى المستشفى كمرضى، كانا ودودين للغاية، وطمأنت ناثان أنه لا يعاني من شيء جِدِّي، قالت بترا: إنهما في إجازة وكانا يزوران قصر البارون بعد أن اطمأنَّا على

صحة ناثان؛ لأن القصر لفت أنظارهما وتعرَّفا إليها وسألاها عن حقيقة أساطير السرداب التي سمعوها حوله، وأنها نفت كل شيء وأكدت أنها مجرد أقاويل شعبية، وبعد أن دعونا على العشاء ذات مرة، دعوناهم نحن بعدها وبدأت صداقتنا، ولاحظت أنهما يسألان عن قصر البارون في حديثهما كلما التقينا، ثم بات ذِكره أساس نقاشنا وجلساتنا، إلى أن كان يوم المُصارحة، إنهما يريدان خريطة السرداب التي تَصِل القصرَ بالكنيسة، ولم يفصحا صراحة هل يضم السرداب كنزًا مثلًا؟ تردَّدت بترا وأقنعتها بأنها فرصة لن تُعوَّض خاصة بعد عرضهم مبلغًا ماليًا كبيرًا، وتأشيرة إقامة في إحدى الدول الأوروبية، وعقدنا العزم على مساعدتهما، كان هذا العرض فرصة حياتي، لن أرفضها من أجل ضمير متخاذل يجعل مني نسخة أخرى من أبي الطبيب الشريف، وماذا ترك أبي لي؟ شقة إيجار تحاول صاحبتها طردي بكل الطرق، وسيارة تهالَكت وتهالكتُ أنا معها.

وبدأنا في تنفيذ الخطة على مهَل، علمنا أنها ستأخذ من أعمارنا سنوات قلائل، لم أرَها مشكلة إذ إننا في كل الأحوال لا زلنا على قيد الحياة نحاول، فلنجرب حظّنا ونُقامر، وقابلت صباح في المستشفى، كُنت أعلم علاقتها بعائلة دكتور إسحاق قبل أن تُصارحني بها، وعملت على توطيد علاقتنا، فأحبتني دون بذل أي جهد، وساعدتني في بداية الأمر دون أن تدري، واضطررت بعد ذلك لبذل القليل من النفاق معها لأحصل على غايتي، حينها لم أعِدها بالزواج، كل ما أشرت إليه أننا لا نعلم ماذا يحمل الغد لنا.. من يدري؟ لكنَّها أخذت تَسَاؤلي على مَحمل الجِد واعتبرته وعدًا خفيًا كما تفعل كثير من

الفتيات، وبدأت تُساعدني بكامل إرادتها، وعندما حكَت لي ولبترا في أوائل أيام التصوير أنها رأت إسراء وكأن روحًا تلبَّستها، أخبرت ناثان على الفور، وبدوره أعطى بترا سِحرًا أسود لتضعه صباح لإسراء في مشروبها المفضَّل، أنا لا أعتقد في فاعلية هذه الأمور لكن ناثان كان مهتمًّا بأن تشرَب إسراء السحر، يقول: إن روح هيلانة اختارتها ولسبب مجهول، ربما دخلت إسراء القصر في توقيت خاطئ! أو سَحِرت من وجود روحها! أيدته بترا بأن إسراء خير من تصلُح لهذه المهمة؛ لأنها فُضولية وشجاعة وذكية، لن يخيفها ما سيحدث في القصر، بل سيكون حافزًا لها لمواصلة الأمر ومعرفة حقيقة الغرفة الوردية، تركتها تفعل ما تفعل طالمَا أنه يصبُّ في مصلحتنا جميعًا، بعدها اضطررت إلى توسيع رقعة النفاق قليلًا فأشعت أنني أنتوي خطبة صباح، لمزيد من الاطمئنان، خاصة وأنني لاحظت نظرات دكتور إسحاق ورامي لي في وجود صباح.

إلى أن جاء اليوم المشئوم الذي قرّرت فيه صباح هدْمَ كل شيء، في لحظات، رأيتُ أحلامَ السنوات تتحطم أمامي، كانت تُمسك بهاتفها وتهددّني وبهيستيريا أخذت تضربني على وجهي! لم أتمالك نفسي إلا وأنا أمسك بهاتفها وأضربها ضربات متتالية في رأسها، كان قتلها صدمة حينها لكني تجاوزتها، تساءلت لماذا فعَلت صباح كل هذا؟ لماذا تخلّت عن حُبها الذي دام لسنوات؟ وفهمت أنها رأت رسائل بترا، في هذا اليوم كنت سأخبرها أنني تخلّصت من سيارتي لقاء مبلغ معقول، وكنت على وشك أن أعطيها جزءًا منه لقاء مجهودها معي، كان ضميري سيؤنبني لو لم أفعل ذلك، لم أنوِ

التخلصَ منها حقًّا، لكني لم أعلم طوال هذه السنوات أنها غبية لهذا الحد؛ لذلك لم أشعر تُجاهها بأي شفقة فهي مَن وضعت حياتها في مأزقٍ.

وبعد أن أخذت الأوراق وسلّمناها، تفاجأتُ أن كامل المبلغ المُخصّص لنا قد تمَّ تحويله لحساب بترا في لندن وأنها قد سبقتني إلى هناك! قالت في آخر مكالمة بيننا أن هذا أفضل سيناريو لنا؛ لأنها تملك جواز سفر إنجليزيًا، أرسلت لي عنوانًا تُقيم فيه وهي في انتظاري اليوم، وسوف تُعطيني المالَ غدًا عندما نذهب معًا إلى البنك، شعَرت بالقلق وبخيانةِ "ناثان وجوليا"؛ لأن هذا لم يكن اتفاقنا، لكني لا أستطيع تعديل سلوك الناس ليوفوا بعهدهم ولن تستطيع بترا التلاعُب بي.

وها أنا أجلس في المطار بعد أن انتهيت من إجراءات الـ Boarding ، أنتظر قدوم الأتوبيس الذي سينقلني إلى الطائرة ثم إلى عالم جديد أنعَم فيه، عالم كنتُ أتمنّى لو تكون ماريز رفيقة فيه، لكنها تحب رامي الذي تركها لرجل آخر وهرب، غبية أخرى تحبُّ جبانًا، عجيب كيف يجعلنا الحب أغبياء! فمنذ عودة رامي كنت أخاف عودة ماريز إليه وشعَرت بالمنافسة، حتى إنني دفعتها بحُمق لاختبار مشاعرها عندما استشارتني لأعرف شعورها الحقيقي، لكني عندما أنظر مجددًا إلى الأمر أجد أنها لا تستحقني فلا داعي للأسف.

أغمضت عيني للحظات وزفرتُ زفرة طويلة هادئة، ها أنا أخيرًا أُحقِّق حُلمي وأبعُد عن كل هذا العبث الذي أوشك أن يتم ستة وثلاثين عامًا، حينها شعرت بيدٍ صغيرة تربت على كتِفي، فتحتُ

عيني فرأيت طِفلة شقراء جميلة تبتسِمُ، ابتسمت لها فأشارت وراءها إلى رجل يقفُ أمامي، كان ضابطًا ومعه ضباط آخرون! أردف مبتسمًا:

- دكتور خالد الشافعي؟

أردفت متفاجئًا:

- أيوه.

قال في صرامة:

- إتفضَّل معِانا.

رامي إسحاق

علمنا أن وزارة السياحة اختارت مديرة جديدة للقصر، وأخبرتنا الشرطة أنه تم القبض على خالد قُبيل سفره بدقائق، عندها تعلَّمت أن أُصدِّق انطباعي الأول عن الأشخاص بنسبة كبيرة، لقد بذل خالد جهدًا كبيرًا حتى أثق فيه، غريب أنني ما زلت أتعلم في هذا العمر! اعترَف خالد أن السائحين ناثان وجوليا على الأرجح لا يزالان داخل مصر، وعلمنا من الشرطة أنهما بالفعل كانا تحت المراقبة وقُبض عليهما في مدينة طابا، وبحوزتهما الأوراق الخاصة بوصية البارون وخريطة السرداب التي سرقوها بمعاونة خالد من خزنة أبي ووحدة الأدراج، ولكنها مزورة ولا تحتوي على كل المعلومات! الأمر الذي كشف فِطنة أبي وحرصه على إرثه بأن وضع في وحدة الأدراج والخزينة أوراقًا مزورة للأوراق الأصلية، حتى إنها لم تحتوِ على شيء هام تقريبًا، سلَّم أبي الأوراق الأصلية للشرطة، وإلى الآن لم يُخبرني كيف وأين أخفاها؟ ولماذا فعل ذلك؟ المهم أنها ستكون في حيازة الدولة؛ لأنها أثرية بالمقام الأول، وللدولة الحق في فتح السرداب أو إبقائه سريًّا ومغلقًا، وهذا قد أزاح مسئولية كبيرة حملتها عائلتنا لعقود.

كنت في قِمة سعادتي لعودة روح الابن بداخلي ولو حتى بعمر الأربعين؛ لأننا نحن الأبناء نحتاج إلى آبائنا ولو كنا بشيخوختنا، وشعَرت بالامتنان لعودة الأب الذي افتقدته وسامحته بعد أن تحدَّث معي نادمًا على تصرفاته التي قصد بها إصلاحي من وجهة نظره.

عندما علمت رنا بما حدَث لصباح عادت في أقرب رحلة للاطمئنان على أبي، وعندما رأت أن علاقتنا قد استقامت أخيرًا سافرت مرة أخرى لزوجها وأبنائها، سافرت هذه المرة وهي سعيدة ومطمئنة، تأثر أبي كثيرًا بمقتل صباح وخيانة خالد، والآن نعيش بشكل مؤقت في شقتي بمنطقة التجمع، حتى تسمح لنا الشرطة بالعيش في شقتنا التي أصبحت "مسرح الجريمة"، وأعطى أبي لحازم "سكر" ليرعاه حتى عودتنا من جديد لبيتنا أمام القصر.

لكن مشكلة هيلانة والقصر لم تُحل بعد؛ لذلك وبعد حوار طويل مع مديرة القصر الجديدة، استضافتنا أنا وأبي ونزار فقط في مكتبها، أصر أبي على أخذ نظارة "الميتافيرس" معنا، وبدا نزار في شدة الإرهاق، كان وجهه مصفرًا والهالات السوداء تُغطيه، وملامحه أشد حدة، بالرغم من ذلك بدَا أعقل وأهدى مما كان، كان ذهنه حاضرًا ونظراته تدل على صفاء تركيزه.

شرح أبي لمديرة القصر علاقته وعلاقة عائلته بالقصر، ثم أفصح عمّا حدث لنا جميعًا وأوضح أنه يريد إنقاذ إسراء مما تعانيه، وقال إنه لا يتوقّع منها أن تصدقه لكنه يرجو مساعدتها، وذلك بتركنا لمدة ساعة واحدة على الأقل في القصر بعد انتهاء زيارته، ووعدها بعدم التطفل مرة أخرى، بدت مديرة القصر غير مقتنعة بحكايتنا، قالت إنها بالطبع سمعت عن أساطير القصر وكل ما حِيكَ عنه، ولا تُصدق الكثير منها، لكنها مؤمنة بوجود الماورائيات بشكل عام، وأنه من الصعب إعطاؤنا فرصة مثل هذه وهي في بداية استلامها للقصر، خاصة بعد هروب بترا، لم أعلم ماذا يدور في عقل أبي، لكن مديرة

القصر قرَّرت المجازفة لإحساسها بأن أبي شخص صادق.

وهكذا وبعد أن خرج من بوابة القصر آخر زائر دخلنا أنا وأبي ونزار مع مديرة القصر، عندما دخلنا البهو الرئيسي تذكرت كل ما حدَث، وكانت حركتي قد تحسَّنت عن ذي قبل وتمنيت ألا تختبرني أحداث مماثلة هذه المرة، فأبي لن يتحمل وعكة صحية أخرى.

نظرنا إلى الدرج الخشبي وإلى الغرف يمينًا ويسارًا، نظرت مديرة القصر في ساعتها ثُم إلى أبي وقالت:

- هسيبكم ساعة زي ما اتفقنا يا دكتور.. خلوا بالكم على نفسكم.

كانت جملتها الأخيرة اعتراف بأنها تصدِّق أساطير القصر بداخلها، تركتنا وارتدى أبي نظارة "الميتافيرس" وأخذ يتجوَّل وحده وطلب منا أن ننتظر بالقرب منه، دَلف أبي يسارًا إلى غرفة الصالون وتركنا في البهو وانتظرنا لبرهة، لم يحدث شيء على الإطلاق، خرج ودخل غرفة الطعام يمينًا، لم نلحظ أي شيء غير طبيعي.

شعَرت أن أبي مُرتبك والوقت يمر دون أن يحدُث شيء من خُطته، وأخيرًا، خرج إلى البهو وقد خلع النظارة من فوق رأسه وبدَا يفكِّر ثم قال:

- القصر طبيعي فعلًا يا ولاد.. تفتكروا كان بيتهيألنا كل اللي حصل؟ أعتقد مفيش حد اسمه هيلانة ولا حد مات ولا...

وفجأة قاطعنا صوت تكسير مرآة! وسمِعت صوت اشتعال نيران! أشار لنا أبي بالسكوت، حينها سمعنا صوت خطوات واضحة بالطابق

الأعلى، لم تكن ردّة فعلنا كالمرات السابقة، كنا على وعي بالتواصل الذي سيحدُث، فقط أردت أن يحدُث في سلام، ارتدى أبي النظارة من جديد ودلفَ إلى غرفة الصالون ونحن وراءه وسمعنا هيلانة تقول:

- إنت عارف إن الكلام ده كلام فارغ.

حينها ابتسم نزار بطريقة عجيبة ودخل غرفة الصالون وأنا خلفه، كانت تقف بجانب المدفأة الرخامية ورأيت نارًا قوية تشتعل بداخلها! رأيت السيدة أو هيلانة كما أرى أبي ونزار تمامًا، كأي إنسان حي، بفستانها الأحمر وقُبعتها السوداء، ولم يكُن هناك آثار لأي زجاج مكسور وكانت المرايات سليمة! كان هذا في حدّ ذاته مخيفًا، وفجأة رأيت حجرًا كبيرًا قادمًا من ناحيتها باتجاه رأسي فانحنيت بتلقائية لأتفاداه، في نفس الوقت هجمت هيلانة على أبي وكأنها ستؤذيه وهي تصرخ:

- إنت السبب في كل ده.. السرداب لازم يتفتح.

اتجه نزار إليها بسرعة ووقف حائلًا بينها وبين أبي وهو يقول بهدوء:

- إسحاق ملوش دعوة بحاجة هو حافظ على الأمانة.

نظرت له بغضبٍ وهي تبتعِد قليلًا ولم تُجبه. قال نزار:

- أنا عارف إنك موجودة هنا على طول.

نظرت له في لومٍ وغضبٍ وقالت:

- لكن إنت عُمرك ما حسّستني إني موجودة، كنت على طول مسافر وكنت طول الوقت وحيدة.

خلَع أبي نظارة "الميتافيرس" وهو يُراقبهما، قال نزار بندم:

- عمري ما قصدت أحسّسك إنك وحيدة، إنتي أُختي.. أنا آسف على كلّ حاجة.

قالت بنبرة مرتعشة:

- كان بإمكانك تنقذني، لكن حتى في لحظاتي الأخيرة كنتْ مشغول.

قال وقد بدا نزار مُنفعلًا:

- مش حقيقي، أنا أوّل ما سمِعت صرختك سيبت كل حاجة وجريت أشوفك، لكن كنتي خلاص، زعلي عليكي كان لا يُحتمل واكتأبت، لِحَد ما استعنت بخبير أرواح هنا في القصر علشان أعتذرلِك، كُنت عايز أشوفك وأعتذرلك، كنت عايز أقولك إني عُمري ما عبَّرت عن اللي جوايا ناحيتك، على اعتبار إنِّك أكيد عارفاه؛ لأننا إخوات، كنت عايز أقولك قد إيه أنا بحبِّك.

عندها بكَت هيلانة وقال نزار:

- وبالفعل كُنتي موجودة.. أنا حسِّيت بوجودك وحسِّيت بغضبك، حاولت كتير لكن غضبك كان أقوى.. أرجوكي إقبلي اعتذاري.. سامحيني.. أنا قصَّرت في حقِّك كتير بعَدَم وجودي وعدم اهتمامي وانتي إتحملتي كتير وحاولتي أكتر تشاركيني حياتك، لكن واقع

حياتي كان قاسي.. وكأني بسابق العُمر علشان أبني وأشيِّد وأعمل إمبراطورية، تَناسِيت إن أهم حاجة هي العِيلة مش الفلوس، إنت كنتي محتاجاني وملقتيش مني غير التجاهُل، أرجوكي تسامحيني.

ظلت هيلانة تبكي فاقترب منها نزار واحتضنها، بدأت ملامِحها تهدأ وبدَت جميلة، ثم احتضنته بدورها وقبّلت خدّه ومالت على كتفِه وهي تبتسم ببساطة ونعومة.

بعد لحظات رأيتها تدريجيًا تتلاشى ونزار قد أوشك على الوقوع، هرعت إليه متحاملًا على قدمي التي بدأت تؤلمني، خارت قواه وجلَسنا على الأرض، قال أبي لنزار في حيرة:

- يا ترى إيه السر اللي خلى البارون يختارك يا نزار؟

هز نزار رأسه يمينًا ويسارًا في حيرة أكبر، وسمِعنا من جديد صوت خطوات في البهو، هذه المرة كانت مدير القصر، نظرت إلينا في قلقٍ وأردفت:

- إيه اللي حصل؟ إنتوا كويسين؟

نظر أبي في ساعته وقال بهدوء:

- الساعة عدِّت واحنا تمام.. وكمان القصر تمام.. بالتوفيق.

***

في جوٍّ خريفي كنّا على دعوة غداء عند حازم وإسراء في بيتهما على البحر في الساحل الشمالي، انتهى الصيف وأصبح الشط خاليًا إلا من صوت أمواجه، لاحظت أن "سُكر" هادئ على غير عادته، ربما

لأنه لم يُغير مكانه قط منذ اشترته أمي رحمها الله، على المائدة كانت إسراء استعادت نضارتها إلى حدٍّ كبير ورأيتها مثلما أول مرة، تمزح وتتنمَّر علينا وتضحك، عجيب أنها لا تذكُر الكثير مما حدث لها! يراقبها حازم الذي لم يُصدِّق عودتها إليه مرة أخرى، أما أولادهما وابنة ماريز فقد اختاروا غرفة المعيشة ليتناولوا فيها غداءهم، جلست بجانبي ماريز في هدوء، لكني كنت أملِك سؤالًا هامًّا بلا إجابةٍ، اقتربت قليلًا من أبي وسألته:

- الأوراق الأصلية كانت فين يا بابا؟ وإزاي عملت أوراق مزورة أصلًا؟!

ابتسم وقال:

- الأوراق الأصلية كانت في اللعب القديمة بتاعتك، الجيتار اللي مامتك جابتهولك في عيد ميلادك زمان، أما الأوراق المزورة دي كان عاملها البارون كخُدعة يعني وتحسُّبًا لأي سرقة وأنا كنت دايمًا حاطِطها في وحدة الأدراج مع شوية صور قديمة..

فُغِر فاهي لأن الجيتار كان موجودًا وظاهرًا للجميع، بينما وجَّه أبي تفكير من يريد الاستيلاء على الأوراق إلى الخزينة أو وحدة الأدراج، سألته بفضول:

- إيه اللي خلَّاك تعمِل كِده؟ منطقي إنك تشيل الأوراق المهمة في الخزنة؛ لأنك حاطط مفتاحها في سلسلة!

قال بعفوية:

- الأحداث كلها من أول ما بدأتم تصوَّروا في القصر كانت بتقول: إن الأوراق في خطر، وبالرغم من ثِقتي في صباح وخالد إلا إني كنت حريص محدش يعرف خالص إني نقلت الأوراق، علشان لو حد اتعرض منهم لأي تهديد ميضطرش يقول على المكان، وقتها مكنتش متخيل إن الصدمة هتبقى في خالد وصباح!

سألت أبي:

- هي صباح كان معاها مفتاح الخزنة إزاي؟

ابتسم أبي وقال:

- قبل ما اتعب لاحظت إنها بتبص على المُفتاح اللي في رقبتي دايمًا وكأنها بتتأكِّد إنه موجود، وقتها بدِّلت كل الأوراق اللي في الخزنة، وكنت حاسس بيها في المستشفى، هي كانت بتاخد رسمة المفتاح على صلصال وسبتها تعمِل ده.

كانت ماريز مُنتبهة لما يقوله أبي فصاحت وهي تنظر لي بثقةٍ:

- يبقَى اليوم اللي شفت فيه صباح في المستشفى بتتأكد إن ماسك التنفس شغال كانت بتحاول تاخد المُفتاح.. أنا قولتلك حسيت في حاجة غلط وانت مصدقتش يا رامي.

سألته بتعجبٍ:

- ليه يا بابا سيبتها؟

- علشان كنت عارف إني لو فقت ساعتها كان ممكن ترتبك وتقتلني بجَد، مِش هتعرف بتعمل إيه، وكان لازم أشوف بعيني خيانتها

علشان مزعلش عليها.

استغرقت في تفكيري وبقي نزار وأبي يتحدثان ويضحكان وقد أصبحا صديقين مؤخرًا، وسمِعت أبي يقول بصوت خافت:

- كنت أتمنى ماشوفش خالد بالصورة دي.. أبوه الله يرحمه كان رجل عظيم.

سألته بحيرة:

- أنا فاكر وأنا صغيّر قد إيه كنتوا قُريّبين من بعض.

قال أبي بودٍّ:

- جدًّا جدًّا.. قُريبين للدرجة اللي خلّيتني أساعده في أبحاثه بنسبة كبيرة جدًّا، كان عبقري وطيب لكن كسول، أنا مكنتش ذكي زيُّه لكن كنت دءوب مبزهقش، في الآخر قالي: مش هكمّل البحث، وقعد فترة في البيت نفسيته وحشة، كان حاسس بإحباط لما اتناقشنا في مرَّة وقولتله إن فيه ثَغرة في البحث، مكنش الموضوع يستاهل زعله وقتها، دي نقاشات علمية طبيعية لكن هو كبّر الموضوع علشان كان النقاش في الجامعة مع زملائنا، اعتذرتِلُه عن سوء التفاهم وحاولت أطلّعه من اللي كان فيه لكنه كان رافض التعامل معايا، إستأذنته في تكملة البحث، وفعلًا عدِّلت فيه كتير وكمِّلته بنسبة كبيرة يمكن أكتر من ٨٠٪ ولما كتبت اسمي عليه زِعل، وعرِفت بعد كده للأسف إنه بيقول لزملائنا إني سرَقت أبحاثه! هو افترض سوء النية وده مش حقيقي، ومع ذلك أشرت بوضوح إن بداية الحدث تمت على إيده لكن هو كان بيسمع اللي عايز يسمعه بس.

علا صوت نزار حينها وقال:

- مش عايزين نجيب سيرتهم تاني، صفحة وقلبناها.

قال حازم وهو ينظر إليّ بحماسٍ وجديةٍ:

- آه يا ريت.. خلِّينا في المُهم، إحنا كده جاهزين ننزل بالبارون ونعملُّه دعاية محترمة.

قالت ماريز:

- يعني أوِّل دُفعة نضارات جاهزة للسوق؟

قلت في ثقة:

- فاكريني مَلْهي معاكم في عفاريت القصر وناسي التَّصنيع؟! أنا جاهز خلال يومين بالكتير، الدعاية يا ماريز أهم حاجة في المرحلة دي.

قالت ماريز بحماسٍ:

- أنا جاهزة من بكرة.

كانت نظرات الفخر من أبي تُلاحقني، وأنا أشعُر أنني طِفلٌ صغير يريدُ المزيدَ من التشجيع، التفَت إلينا نزار وقال:

- عايز أقولكم حاجتين يا جماعة؛ الحاجة الأولى أنا وكارول اتفقنا على الطلاق.

بدأت الابتسامات تتلاشى والعيون أصبحت أكثر جِدية فأكمل نزار:

- من الأول الجوازة كانت غلط، أنا مش هكمِّل في الغلط، أنا عايز أحترم نفسي لما أشوفها في المراية، كِده أحسن ليَّا ولِيها وللبنات، الإجراءات هَتِم في أقرب وقت.

قال حازم:

- لو هتكونوا مرتاحين والأولاد هتعرفوا تراعوهم خلاص.

أردفت إسراء:

- والحاجة التانية؟

ابتسم نزار وهو ينظر لماريز وقال:

- أنا من بكرة هبدأ علاج في مصحة، لازم أساعد نفسي، خطوة مهمة كانت لازم تحصَل من زمان، لكن الخوف من كلام الناس اللي ملوش لازمة كان معطَّلني.

قامت ماريز تحتضنه وتبكي وتقول:

- أنا فخورة بيك.

تأثَّرنا جميعًا؛ حينَها سمِعنا "سُكر" يصرخُ فانتبهنا جميعًا في قلقٍ، ماذا رأى ليصرخ هكذا؟ مرَّت لحظات ثم صاح.

- "كلير.. كلير".

شعَرتُ بالهدوء يغمرني، لا بد أنها هنا بجانبِنا، رأيت دموعًا مُتحجرة في عيون أبي، لكنه لم يستطع كبت مشاعِره فبَكَى، فتولَّت إسراء تهوين الأمر عليه ولم تتركه حتى ضحِك.

وبعد كل ما مررت به لم أعُد أُشَكِّك في تجارب الآخرين بعد أن مررت بتجربتي في القصر، لم يفسر العلم كل الغرائب في الدنيا إلى الآن رغم ثورة التكنولوجيا الهائلة، بل إن النظريات العلمية تتبدَّل وتُعدَّل نتيجة استمرارية الأبحاث، ولولا الشك المستمر من قِبل العلماء في صحة النظريات والقوانين ما كان تطوُّرٌ في الدنيا، إن الشك والفضول في رأيي هما أساسا البحث المستمر وراء الحقيقة، إننا سجناء عقولنا إلى أن نرفض كل المُسلَّمات في حياتنا ونفكِّر.

ورغم كل هذا الشك في الدنيا بتُّ على يقين أن الجدران تستمع وتعرف أسرار النفوس، تشعر بزائريها، وتعلم الخير والشر والنوايا، بتُّ أعلم أن الهمس تمتصه الجدران، إن همسات الناس لا تطير في الهواء، فقط إذا أنصت ستبدأ في سماع تلك الهمسات.

بتُّ مؤمنًا بترتيبات القَدَر، ومؤمنًا بأهمية "الوقت المناسب" لكل شيء في الحياة، كان هذا وقتي المناسب للعودة إلى ماريز، التي أنظر إليها وأشعر أنها جزءٌ منِّي ولا أدري هل حقًّا أستطيع إسعادها؟ لم أكن يومًا مُستعدًّا في الماضي، ربما عليَّ أن أحاول لأكتشف هذا.

لم أفهم شعوري تُجاه أبي مثل هذه الأيام، إن التجارب لا تنتهي في الحياة طالما أن أنفاسنا لا زالت في أبداننا تخرج وتدخل، لكني ممتنٌّ بشكلٍ خاص لتجاربي السيئة، والتي أثقلت عقلي وجعلت منِّي شخصية تنظر إلى العالم من حولِها من زوايا مُختلفة وأُفقٍ أوسعَ.

***

تمَّت

التواصل مع الكاتبة

https://www.facebook.com/marwagouhar/

https://www.instagram.com/mgouhar/
https://instagram.com/marwagouhar

https://twitter.com/gogogouhar?lang=en

@marwagouhar